[illegible]

[illegible]

[illegible]

مشروع بحث لنيل شهادة الماجستير

تخصص : فلسفة إسلامية

عنوان البحث

[illegible]

[illegible] :

[illegible]

[illegible] :

[illegible]

السنة الجامعية

2005- 2004

كلمة شكر:

أشكر الله عز وجل وأحمده حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه , وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله .

أما بعد :

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الفاضل د/شريط الأخضر الذي تبنى الإشراف على عملي هذا بصدر رحب ,والذي أمدني بكل التوجيهات والإرشادات , وتحملني كثيرا من خلال إنهماكه في مراجعة عملي هذا والذي كان نعم الموجه والمرشد , كما أشكر السادة الأساتذة الأفاضل :

د/عمار طالبي , د/ سعيدي حمودة , د/ عبد المجيد داهوم , د/ زرداوي فتيحة, د/ حزرشي عبد الباقي , د/ طالب مناد ,د/ بوساحة عمر , دون أن أنسى كافة أفراد أسرتي خاصة أخي العزيز مبارك , وأختي الغالية يمينة .

وفي الأخير أشكر كل الذين أعانوني من قريب أومن بعيد ولو بكلمة طيبة وقد جاء في الأثر :

" من علمني حرفا صرت له عبدا "

المـــقـدمـــة

مبررات إختيار البحث و دوافعه :

لا يخفى عليكم أن القرن الماضي شهد ظهور تيارات فكرية وسياسية كثيرة لم تلبث أن تقولبت في مذاهب إجتماعية , إقتسمت القوى البشرية , وعصفت رياحها بأركان الأنظمة القديمة وأحدثت إنقلابا جذريا في شتى الميادين , غيرت مجرى التاريخ وأجبرته أن يعيد تنظيم خريطته السياسية والإقتصادية والإجتماعية على قواعد جديدة

وإذا كانت حركية التغيير قائمة على الجدل فما هي الغاية لهذا التغيير ؟

وهل يتدخل العامل الديني في الحركية التغييرية للتاريخ ويحسم الموقف ؟

وكيف يمكن لهذه الحركة التغييرية أن تؤول نحو غاية تسمى بالحضارة ؟

إن من السنن الكونية سعي الأمم والمجتمعات في إتجاه المستقبل للتطور والتقدم والتغير فتنجح وتتقدم إلى الأمام مرة , وتخفق مرة أخرى فتتأخر إلى الوراء .

والأمة الإسلامية لم تخرج عن هذا الجدل وهذا السياق التاريخي ولهذا صارت هذه القضية جديرة بأن يمنحها رجال الفكر البعض من وقتهم وجهدهم , و أنا كباحث مبتدئ حاولت الخوض في هذا الموضوع أي موضوع التغيير لأهميته من جهة بإعتباره موضوع الساعة خاصة في العالم العربي و الإسلامي ذلك أن هذا الأخير يتوق إلى التغيير.و من جهة أخرى و علاوة على ذلك فإن رياح التغيير صارت مسألة حتمية في ظل التيار الجارف المسمى بالعولمة . و أخيرا لعدم وجود دراسة كلية و شمولية خاصة بهذا الموضوع .

ولكن لا بد في البداية أن نحدد المشكلة التي نبحث عن حلها : ما هي ؟

أهي البحث عن (الخلل) لنسده ؟ أم نحن نعرف (الخلل) فعلا ولكننا لا نعرف كيف نسده؟ هل المشكلة في صعوبة (التشخيص) أم في وصف العلاج ؟

هل تتجسد مشكلتنا في عدم وجود الطبيب القادر على التشخيص ؟ أم في عدم وجود الدواء الناجع في إقتلاع الداء ؟ أم في أن المريض نفسه غير قابل للدواء ولا يتجاوب مع العلاج ؟

ثم لا بد أن نحدد المحيط الذي نبحث فيه عن (الخلل) أو (العلل) أهو محيط الأمة الإسلامية على إتساعها أم هو محيط الحركة الإسلامية ؟ أم هما معا ؟

وإذا كنا نبحث في محيط أمتنا الكبرى فإنه ليس خللا بل غيبة عن الوعي . خذ مثلا الطبيب الذي يريد أن يسافر ليطلب العلم , وقد عرف أي علم يطلب ؟ وإلى أي بلد يذهب ؟ وأي طريق يسلك ؟ ولكن سيارته التي يمتطيها تعطلت في الطريق , إن هناك خللا قد حدث أهو في المولد ؟ أم المحرك ؟ أم في غيرهما ؟

إن الفكرة ومهما كانت ثرية لا تنفع إلا إذا خرجت من عالم المثل إلى ميدان العمل والتطبيق , وفيه يدرك الناس صلاحها أوفسادها . أما الإيمان الأفلاطوني فخيال شاعري لايكون له أي أثر في الواقع الإنساني المطلوب .

" ذاك ماينتظر الفكرة الإسلامية من تحدي ".

وفي الأخيرفإن هذا الجهد المبذول ماهو إلا محاولة متواضعة مني على أمل أن يؤخذ الموضوع بمزيد من التحليل والدراسة .

و قد وضعت لبحثي هذا خطة رأيت أنها تخدم الموضوع إشتملت على ثلاثة فصول :

فقد حاولت في الفصل الأول ضبط مفهوم التغيير من الناحيتين: اللغوية

و الاصطلاحية مع ذكر أقسامه لأن التغيير في حدود معرفتي و إعتقادي يتم بطرق

و أساليب متعددة و مختلفة فقد يكون باليد أي القوة المادية(العسكرية)

و قد يكون باللسان أو بالقلم مصداقا لقوله تعالى :<<أدع إلى سبيل ربك بالحكمة

و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن >> وقد يكون بالقلب أيضا مصداقا

لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: <<من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان>>

إذن التغيير قسمان:

1- التغيير الثوري أو العنيف

2-التغيير الهادئ أو ما يعرف بالإصلاح

ثم تطرقت إلى إستعراض الفلسفة الماركسية و المثالية الهيغلية , و الحركات الإصلاحية عند كل من جمال الدين الأفغاني و محمد عبده . و في الأخير قمت بضبط مفهوم التغيير عند المفكر الجزائري " مالك بن نبي" و ضحت فيه كيف أن منطلق التغيير الاجتماعي عنده إنما هو التغيير الباطني للإنسان<< أعني نفسية

الإنسان >> مع عقد مقارنة متواضعة بين " بن نبي" و هؤلاء الفلاسفة و المصلحين أين أبرزت فيها كيف أن " مالك بن نبي" لم يمنح الأولوية أو الأسبقية لا للمادة

و حدها , و لا للفكر وحده , و لا حتى للإنسان وحده بل إن التغيير الاجتماعي عنده يتوقف على جملة من العناصر و العوامل متضافرة متكاملة مع منح كل عنصر قيمته و التي يحملها في ذاته و في حدود مجال إستعمالاته و نستتشف ذلك مثلا من خلال معادلته الشهيرة : حضارة= إنسان + تراب +زمن

و كان منهجي في البحث منهجا تحليليا نقديا قدر استطاعتي .

أما في الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن مختلف مجالات و أنواع التغيير الاجتماعي إبتداء بالتغيير النفساني , فالاجتماعي , فالثقافي , فالسياسي , و أخيرا التغيير الاقتصادي و بينت كيف أن التغيير الاجتماعي إنما يتوقف على الإنسان بالدرجة الأولى فهو ينطلق منه (أي التغيير) و يعود إليه إن خيرا فخير و إن شرا فشر لا قدر الله دون أن ننسى دور المجتمع لأن العلاقة بين الفرد و المجتمع شبيهة بلزوم التربة الخصبة لإنبات البذرة " فالفرد للمجموع و المجموع للفرد" كما يقر بذلك المفكر " مالك بن نبي " .

وقد سلكت في ذلك المنهج التاريخي و المنهج التحليلي النقدي .

و أخيرا و في الفصل الثالث ركزت على مقاصد و غايات التغيير و التي تتجسد في نهاية المطاف " بناء صرح حضارة " و التي لا تتم و لا تحدث إلا بما يسميه

" مالك بن نبي" ب " الإنسان الجديد " فهو صاحب مشروع و حامل رسالة.

ذلك أن سعي الإنسان نحو أي لون من ألوان التطور هو نتاج ثمرة طبيعية لمعرفة هوية ذاته, أي أن التغيير الاجتماعي مرتبط بالجوهر الاجتماعي لأن التنمية لا

تشترى من الخارج بعملة أجنبية بل على المجتمع الذي يريدها أن يلدها وفقا لشروط معينة و بما يتماشى مع إمكانياته الذاتية مع التفتح و التعامل مع الغير .

و توصلت إلى أن الإنسان العربي و الإسلامي بإمكانه بناء صرح حضارته من جديد إنطلاقا من الإقتناع بفكرته قلبا و قالبا. و قد إتبعت فيه المنهج التحليلي النقدي و الإستدلالي آملين التوفيق .

<< و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب>>

هود : الآية 88

أما عن العوائق والصعوبات التي إعترضت سبيلي أثناء إنجازي لعملي المتواضع هذا فتتمثل كالتالي :

أولا :

إن فكرة التغيير عند " مالك بن نبي " لم أعثر لها على دراسة خاصة بها من طرف دارسي فكر " مالك بن نبي " مما جعلني أعقد العزم على تناول هذا الموضوع .

ثانيا :

إن فكرة التغيير عنده تحتل حيزا وتشغل جانبا هاما وجوهريا في دراساته ,وهو لم يخصص لها دراسة خاصة في بعض كتبه . ولهذا بذلت أقصى ما في وسعي في البحث عنها في عمق أفكاره مما أجبرني على دراسة كل ما هب ودب من أفكاره .

ثالثا :

عدم وجود دراسة خاصة متميزة لموضوع التغيير ومنحه حقه وما يستوفيه من تحليل ومناقشة , وما يستحقه من إثراء لم يتداول بشكل شمولي, وبنظرة كلية , فكل الفلسفات والنظريات نظرت للموضوع نظرة جزئية كحال النظرة الماركسية والهيغلية ...إلخ .
فأردنا بذلك ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة توضيح شمولية نظرة المفكر الجزائري " مالك بن نبي " لفكرة التغيير .
لكن هناك صعوبات أخرى تتمثل في قلة المراجع والمصادر المتخصصة في موضوع التغيير الاجتماعي . علاوة على ذلك جملة مشاكل إجتماعية ومادية ملقاة على عاتقي مع صعوبة التوفيق بين العمل ومتطلبات أسرتي من جهة , وبين البحث من جهة أخرى وبين مكان عملي وبعدي عن العاصمة من جهة ثالثة .

ولكن وعلى الرغم من الصعوبات السالفة الذكر فإن إقدامي على إنجاز هذا العمل المتواضع لم يشل , وثقتي بنفسي لم تربو ,وحاولت كمبتدئ في ميدان البحث تجسيده على أرض الواقع ليرى النور .

فإن أصبت فمن الله وحده و إن أخطأت فمن نفسي و من الشيطان .

الفصل الأول

الفصل الأول:

- تمهيد:
- طرح الإشكال:
- ضبط مفهوم التغيير:

* لغويا

* إ صطلاحا (سوسيولوجيا)

مفهوم التغيير عند كل من أنصار:

- التفسير المادي : كارل ماركس
- التفسير المثالي : هيجل
- الحركة الإصلاحية بقيادة : - جمال الدين الأفغاني
  - محمد عبده

أقسام التغيير :

*الثوري (العنيف)

* الهادىء (الإصلاح)

مفهوم التغيير عند المفكر الجزائري : "مالك بن نبي"

عقد مقارنة متواضعة بين هؤلاء الفلاسفة والمصلحين
من جهة و مالك بن نبي من جهة أخرى.

الإستنتاج :

التغيير ظاهرة عيانية منشودة من طرف كل الشعوب و الأمم و من بينها العالم العربي و الإسلامي , مع طرح إشكال كتمهيد خاص بالفصل الثاني .

- ضرورة التغيير وحتميته:

الآن حصحص الحق, وو ضح الصبح لذي عينين :

لقد تبين فشل الحلين الدخيلين على بلادنا , المستوردين من عند غيرنا , وهما الحل الليبرالي الديمقراطي , والحل الإشتراكي الثوري في كل مجالات الحياة , وكان إثم كل منهما أكبر من نفعه وفشله أضعاف نجاحه .

- فشل في المجال الاقتصادي
- فشل في المجال الأخلاقي
- فشل في المجال العسكري
- فشل في المجال العربي الإسلامي

فماذا بعد ذلك كله ؟ وما هو البديل ؟

وكيف يحدث التغيير في المجتمع؟ وما هي العناصر والعوامل التي تعمل على إحداث التغيير؟

في البداية لا بأس من ضبط مفهوم التغيير لغة واصطلاحا من جانب سوسيولوجي لأن هذا صلب موضوعنا ومحور بحثنا هذا.

فمن زاوية لغوية: غير الشيء : حوله وبدل به غيره – جعله غير ماكان. غاير غيارا, ومغايرة : بادله- خالفه- عارضه في البيع كان غيره- تغيير: تحويل وتبديل.(1)

غير, يغير, تغييرا: بدل(غير ثيابه),(غير سلوكه),(غير موقفه).

(غير رأيه),(غير موضع الكلام). تغير, يتغير, تغييرا: أصبح على غير ماكان عليه << وأنهار من لبن لم يتغير طعمه>> قرآن كريم (2)

مصدر تغير(فلسفيا) : تحول صفة أو أكثر من صفات الشيء أو حلول صفة محل أخرى.

---

(1) المنجد في اللغة والإعلام - دار المشرق بيروت ط/39 ص563.

(2) المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ومتعلميها تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - دار النشر لاروس 1939 ص908

أما من زاوية سوسيولوجية: فإن مفهوم التغيير يعني ظاهرة عيانية موجودة في كل مستويات الوجود في المادة الحية و في المادة غير الحية وفي الحياة الاجتماعية ويعتبر علم اجتماع التغيير الاجتماعي اليوم أحد الفروع الأساسية والهامة لعلم الاجتماع. إ ن أي نسق اجتماعي Social System إنما يحتوي على نوعين من العوامل :

أولا:

العامل الذي يعمل علي الحفاظ عليه وظمآن إ ستمرار يته كالتنشئة الاجتماعية , والضبط الاجتماعي , نقل الإرث الروحي والثقافي من السلف إلى الخلف .

ثانيا:

وهو ذاك العامل الذي يعمل علي تبديله وتغييره إبتداءا بالتعديل وانتهاءا بالثورة.

وفكرة التغيير تعود أساسا إلى مسألة الجدل الفلسفي الحاد حول مسألتي (التغير والثبات) والذي يعود تاريخه إلى فجر الفكر الفلسفي ولا سيما اليوناني عند كل من(هيراقليطس,Hercualptus 540-480 ق م) باعتباره ممثل فلسفة الحركة والتغيير وكذلك (بارمنيدسParmenides 540-450 ق م) باعتباره المدافع العنيد عن فلسفة الثبات. ودون الدخول في متاهات السرد التاريخي يمكن إعتبار ظهور الفكر الجدلي الديالكتيكي على يد الفيلسوف الألماني الكبير (هيجل-Fredrich-HeGel 1770-1831ق م) والذي سبق(لهيراقليطس) أن زرع بذوره وإيقافه على قدميه من قبل(كارل ماركس و فريدريك أنجلز) وتطبيقاته العملية فيما بعد على يد(ف- لينين) هو أعظم إنتصار لفلسفة التغيير على فلسفة الثبوت وفي هذا يرى (هيجل) أن جميع الأشياء هي في حد ذاتها متناقضة.

أما(ماركس) فانه يعرف الدياليكتيك بأنه علم القوانين العامة للحركة .

إلا أنه تجب الإشارة إلى وجود مفاهيم متشابهة بل ومتداخلة ومتقاربة أحيانا كالتطور evolution l' والتغيير Changement والتقدم LAProgression والنمو Development, وحتى مفهوم الإصلاح(LAReforme) في عصر النهضة يمكن إدراجه ضمن هذا السياق .

لكن بعض علماء الاجتماع حرصوا على ضرورة التفريق بين مضامينها واستعمالاتها وفي هذا يقول:ت-ب-بوتومورT-B- Bottomore مايلي:

<<ونلاحظ علي هذه النظريات السوسيولوجية الأولى أن مفاهيم التغير والتطور والنمو والتقدم كانت تختلط في بعض الأحيان, أو يربط الفكر بينها في مفهوم واحد, وكان يحدث في حالات أخرى أن يفرق العلماء بينها, ولكنها كانت تعتبر مصطلحات مرتبطة ببعضها إرتباطا منطقيا>>(1) إن التغير بالمفهوم الاجتماعي يعني إحداث تبدلات عميقة جذرية في حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية وهي بذلك تتبدى من الوجهة العلمية في صورة :

* تبدل شكل ومضمون السلطة(الحكم)

* تبديل صورة الهرم الاجتماعي

أي إحلال العلاقات الاجتماعية الجديدة محل العلاقات الاجتماعية القديمة:

وقد كانت مشكلة التغيير الاجتماعي من أهم المسائل التي شغلت بال الفكر الإنساني من خلال إستقراء تاريخه(أي تاريخ الفكر البشري) وقبل عرض موقف " مالك بن نبي" منها,يمكن تجسيدها أي مشكلة التغيير الاجتماعي في محورين أساسيين تركا صدى كبيرا في ذلك هما:

1- التفسير المادي كارل ماركسK-MARX :الإ تجاه الذي يتبع الفكر بالمادة ويرى أن التغيير الاجتماعي إنما يخضع لعوامل موضوعية موجودة خارج عن الوعي أي أن : وعي الناس إنما يتحدد بوجودهم الاجتماعي.

2- التفسير المثالي هيجل HEGEL :الإ تجاه الذي يرى تبعية المادة للفكر .الفكر أو الوعي علة التغيير الاجتماعي أي أن : وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي.ولكن قبل التطرق إلى التفسيرين المادي والمثالي بالتفصيل وبشكل معمق لا بد من الإشارة إلى أن هناك طرق وأساليب مختلفة ومتعددة للتغيير وهي ك

---

(1) د/ محمد الجوهري وآخرون : ميادين علم الاجتماع القاهرة 1974 ط/3 ص2-

التغيير الثوري العنيف:
وهو محاولة تغيير لوضعيات مختلفة من الجور والفساد التي تسود مجتمعا ما والثورة كما يعرفها الدكتور محمد عمارة:

<< هي التغيير الجذري المفاجىء في الأوضاع السياسية والاجتماعية بوسائل تخرج عن النظام المألوف, ولا تخلو عادة من العنف>> (1)

كما يعرفها أيضا بقوله:

<<العلم الذي يوضع في الممارسة والتطبيق من أجل تغيير نظم ومجتمعات الجور والضعف والفساد, تغييرا جذريا وشاملا, والإنتقال بها من مرحلة تطورية معينة إلى أخرى أقل قيودا, وأكثر حرية, وأبعد في التقدم>> (2)

ولتوضيح ذلك نستقرئ التاريخ القديم والمعاصر ونأتي بمثالين عسى أن يعكسا و بصدق و جلاء ما ذكرناه في حديثنا سلفا:

أولا:العملية التغييرية العظمى التي قادها الرسول (ص) أثناء تبليغه للرسالة فاستعمل في البداية أسلوب الدعوة و الجدال بالتي هي أحسن رغم ما تعرض له من أذى ,إلى أن شرع الله عز و جل الجهاد في سبيله من أجل الدفاع عن الدين و النفس. و بذلك أصبح الجهاد ضرورة لا بد منها لحماية الدعوة.

ثانيا: ويتمثل في الثورة الجزائرية التي إندلعت في الفاتح من نوفمبر1954 , و التي كانت إنقلابا عنيفا على الإستعمار الفرنسي , نقلت الشعب الجزائري من حياة الجور و الإستغلال و الحرمان إلى حياة الحرية و الكرامة و الأصالة و بناء الجمهورية الجزائرية.

---

(1) محمد عمارة :الإسلام و ضرورة التغيير وزارة الإعلام مطبعة حكومة الكويت سنة 1977 ص 11

(2) محمد عمارة : المرجع السابق نفسه ص 11

2/التغيير الهادئ أو الإصلاح :

وهو تغيير سلمي تدريجي للأوضاع الفاسدة دون اللجوء إلى القوة وعلماء الاجتماع الأوروبيين يرون أ ن الإصلاح لا يرتقي إلى مستوى التغيير لا لعدم تميزه بالعنف أو إ ستعماله للقوة ,بل لأنه ليس تغييرا جذريا وشاملا (1)

وهذا ما عرفته مثلا أوروبا في غضون القرن 16 أي العودة إلى الكتب المقدسة,

و كذلك في عصر النهضة في العالم الإسلامي عند الشيخ جمال الدين الأفغاني

و محمد عبده ومحمد إقبال و ابن باديس...الخ

الثورة : la revolution

الثورة تعني (الإندفاع) الناجم عن تجمع أو إختزان القوة فيقال ثار البركان ,و يقال ثار الرجل.

الثورة بالمفهوم السوسيولوجي : revolution social

وهي تعني إحداث تبدلات عميقة جذرية في حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والاديولوجية.

فهي رفض جذري لما هو قائم وبالتالي بدل من إضاعة الوقت في الترميم والتصحيح يجب تغيير ما هو كائن تغييرا جذريا شكلا ومضمونا.

<< لذا فالمشكلة الرئيسية في كل ثورة هي مشكلة السلطة السياسية, فنقل السلطة من أيدي الطبقة الرجعية الحاكمة إلى أيدي الطبقة الثورية يتحقق عن طريق صراع طبقي حاد, والثورة هي أعلى أشكال الصراع الطبقي >> (2)

ولا يقتصر استخدام مصطلح وقف الفهم السابق على الظواهر الاجتماعية والتغير الاجتماعي, وإنما يستخدم في مجالات أخرى فنقول: الثورة الصناعية والثورة العلمية, والثورة التقنية (التكنولوجية) والثورة الزراعية ...الخ

---

(1) د/ محمد عمارة : المرجع السابق نفسه ص12

(2)الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين بإشراف

م- روزنتال ي- بودين ت / سمير كرم مراجعة جلال صادق العظم وجورج طرابيشي دار الطليعة للطباعة والنشر ص155

<< إن الثورات الاشتراكية , و ثورات التحرير الوطني المعادية للإمبريالية و ثورات الديمقراطية الشعبية و حركات الفلاحين العريضة و أشكال , الكفاح الشعبي للإطاحة بالأنظمة الفاشية و الأنظمة المستبدة الأخرى , والحركات الديمقراطية العامة ضد الاضطهاد القومي –كل هذه تتضافر في عملية ثورية على نطاق عالمي تقوم بتعويض وتدمير الرأسمالية >> (1)

الإصلاح :La reforme

معنى الإصلاح من الناحية اللغوية :

إصلاح :<< مشتقة من الفعل أصلح , و صلح , و صلّح , و تدل على تغيير حالة الفساد , أي إزالة الفساد عن الشئ , و يقال أيضا : هذا يصلح لك أي يوافقك و يحسن بك , و يقال أيضا صالح لكذا , أي فيه أهلية للقيام به , وبصفة عامة , الصلاح ضد الفساد >> (2)

---

(1) الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء و الاكادميين السوفياتيين ص 155

(2) لويس معلوف اليسوعي , المنجد في اللغة والآداب , المطبعة الكاثوليكية بيروت ط/1 -1927 ص 445

معنى الإصلاح في القرآن الكريم :

أما بالنسبة للقرآن الكريم فعبارة الإصلاح وردت في العديد من المواضع القرآنية نذكر منها على سبيل المثال:

قوله تعالى:<<إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله >>*

ويقصد بالإصلاح هنا في هذه الآية إرادة الإصلاح العام فيما أمر به الله وفيما نهى عنه ما دمت أستطيعه لأنه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

وقوله تعالى أيضا في سورة هود:

<< وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون >>*

والمعنى المقصود أن الله أهلكهم لكونهم فاسدين , فاسقين ظالمين .

إن فكرة الإصلاح تبلورت في عصر النهضة عند الشيخ" جمال الدين الأفغاني" و الشيخ" محمد عبده ", وفي الجزائر عند الشيخ" إبن باديس ", و"مالك بن نبي ", وكان لكل مصلح نظرته ومفهومه الخاص به حسب بيئته وثقافته وعقليته لذا فالإصلاح يعتمد أحيانا على الجانب السياسي , أو على الجانب العلمي والديني , أو على الجانبين معا. وقبل ذلك أحاول ضبط المفاهيم السالفة الذكر قدر المستطاع:

التطور: L'evolution

تعود فكرة التطور إلى الإنجليزي " تشارلز داروين" (C.Darwin(1882-1809 صاحب نظرية الانتخاب الطبيعي في علم البيولوجيا و نظريته في التطور بناها إعتمادا على عملية التطور الطبيعي كما إستفاد من فكرة " مالتس Maltus" في العلاقة بين التزايد السكاني و نسبة المساحات الممكنة لتوفير المواد الغذائية فتصور حتمية الصراع من أجل البقاء فإذا كانت كمية الطعام محدودة و كان العدد الهندسي للأحياء في تزايد فان الطبيعة العدوانية للكائنات الحية يؤدي إلى الصراع و التنازع من أجل البقاء , و في ظل ذلك فالكائنات القوية تبقى و يستمر نوعها.

---

* هود : الآية 88

* هود : الآية 117

أما الضعيفة فتزول و هو ما يسمى بالإنتخاب الطبيعي أي البقاء للأقوى ففي ولاية نيومكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية , توجد منطقة ذات كثبان رملية مؤلفة من بلورات الجبس الأبيض. تعيش عليها بعض العضايا و الجراد و الخنافس و الفئران البيضاء اللون . ونجد خارج هذه البقعة حيث تميل التربة إلى اللون الأحمر الداكن حيوانات من نفس الأنواع و لكنها بلون يميل إلى الأحمر البني , فالحيوانات المتكيفة مع رمال الكثبان الرملية البيضاء هي حصيلة الطفرات التي أحدثها الانتخاب الطبيعي خلال آلاف السنين , لقد كان الإنتخاب يحتفظ بكل طفرة تؤدي إلى اللون الأكثر شحوبا و أشد ميلا إلى البياض و يحذف كل طفرة تعود إلى الألوان القائمة
و على هذا الأساس يفسر " داروين" عملية التطور.

التقدم : La progression

مص تقدم, تقدم الفلاحة على الصناعة(1)

إرتقاء تدريجي من الحسن إلى الأحسن (2)<< تقدم حضاري , تقدم البلاد >>

التقدمية : مص صناعي , تحرر و تطور في الآراء السياسية و الاجتماعية و غيرها (هو من أصحاب التقدمية)مذهب يقول بأن الجنس البشري كان و لا يزال يسير نحو الكمال .

---

(1)-(2): المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية و متعلميها . ص 972

التنمية الاقتصادية :

هي إجراءات تتخذها السلطة الحاكمة بهدف زيادة الدخل القومي الحقيقي خلال فترة زمنية معينة و في مختلف المجالات الصناعية و الزراعية و التجارية , و بمعدل أكبر من زيادة نمو السكان .

و من هنا كان الارتباط الوثيق بين دراسة السكان

و دراسة التنمية الاقتصادية لأن تزايد السكان يخلق مشاكل للمجتمع قد يكون من شأنها إنخفاض الدخل الحقيقي . و ما ترتب على ذلك من أثار يخفض المستوى الصحي و الثقافي و الاجتماعي (1)

و بعد ضبط المفاهيم السالفة الذكر نعود من جديد إلى تحليل الأطروحتين الماركسية و الهيجلية للتغيير الاجتماعي من منظور ماركسي .

التغيير الاجتماعي من منظور ماركسي:

بادئ ذي بدء لابد من الإشارة بأنه من غير الممكن أن نتعرف على النظرة الماركسية في عملية التغيير الإجتماعي إذا لم نتفحص مفهوم المادية الدياليكتيكية, فحسب رأي مجموعة من الأساتذة السوفيات أنه لا بد من معرفة الأسباب والقوانين التي تسير التاريخ وفي هذا يقولون:

<< فإن عرفنا الأسباب وعثرنا عليها أمكننا خلق الظواهر التي يريدها المجتمع أو عرقلة نشوء الظواهر الضارة به, أو غير المرغوب فيها, والنضال ضدها>>(2)

إذا لا بد من معرفة مختلف القوانين و العلاقات الإجتماعية السائدة فيه ثم العمل على تغييرها بما يتلاءم والهدف الذي سطره الإنسان لذلك وعليه فالحياة الاجتماعية في نظر الماركسية لا تعدو وأن تكون شكلا خاصا من أشكال حركة المادة وهي بالتالي تحتوي في ذاتها على دوافع وأسباب ومصادر التطور. و وظيفة الفلسفة تصبح إذا حسب ماركس عدم الاكتفاء بتفسير العالم بأشكال مختلفة . ولكن تحويله و تغييره حسب الهدف الذي سطره الإنسان لذلك.

---

(1) د/ إسماعيل محمد هاشم : مبادئ الاقتصاد التحليلي دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت 1978 ص615.

(2) جماعة من الأساتذة السوفيات : المادية الدياليكتيكية فؤاد مرعي و آخرون دمشق ص 192.

و في هذا يقول ((كارل ماركس)) في كتابه " نقد الاقتصاد السياسي " مايلي :

<< يجب علينا أن نعمل على تغيير التاريخ بدلا من أن نركن إلى تفسيره >>

و تشكل الطبيعة و المجتمع و الإنسان في نظر الماركسية وحدة جدلية إذ :

<< ليس في الكون غير المادة المتحركة و أن هذه الحركة الدياليكتيكية خالدة , ليس من أمر نهائي مطلق مقدس أمامها أي أمام الفلسفة الدياليكتيكية فهي تبين الزوال الملازم لكل شيء, و في كل شيء و ليس ثمة شيء في نظرها غير حركة الصيرورة و الفناء حركة التصاعد أبدا من الأدنى إلى الأعلى >> (1)

لكن تجب الإشارة هنا إلى عدم التطابق الكلي و التام بين القوانين الطبيعية و القوانين الاجتماعية.

ففي الطبيعة و إذا ما وضعنا رد الفعل الإنساني جانبا لا يؤثر بعضها في البعض الآخر سوى قوى عمياء " زلزال تسونا مي الأخير".

وفي تأثيرها المتبادل هذا تظهر القوانين العامة و ليس هناك أي هدف منشود... أما في الحياة الاجتماعية فالأمر على العكس إذ يفعل الناس و الذين لديهم موهبة الوعي يعملون بتفكير أو بعاطفة , أو ينشدون أهدافا معينة و لا يتحركون إلا بدافع علة و لوجهة معينة.

لذا فالتاريخ الاجتماعي ما هو في ماهيته إلا صراع و جدل بين الطبقات المستثمرة و المستثمرة,المالكة و المملوكة.

---

(1) فريد ريك أنجلز لودفيغ فيور باخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية المؤلفات الكاملة جزء 21 برلين 1962 ألمانيا ص 267

و فكرة الجدل هذه و التي بنى عليها " ماركس " فلسفته هي في ماهيتها وجوهرها فكرة هيغلية جسدها في ثالوثه الشهير والذي صار ينسب إليه: أي إلى"هيجل":

القضية, النقيض, التركيب Thése- Antithése- Synthése

إلا أن ماركس اقتبسها منه وطبقها في ما يسمى: بالمادية الجدلية أو الدياليكتيكية ذلك أن التاريخ البشري حسب ماركس قام على أساس مراحل وهذه المراحل هي كالتالي:

أولاها: المرحلة المشاعية:

وهي تلك التي ساد فيها الانتخاب الطبيعي, أي هي المرحلة التي كان يعيش فيها الإنسان بتوافق مع الطبيعة, أي لا شيء غير الإنسان وأدواته الطبيعية ذلك أن طبيعة المجتمع آنذاك قائمة على الصيد وقطف الثمار الموجودة في الطبيعة , ثم انتقل بعد ذلك إلى مجتمع زراعي, وهذا التطور حصل نتيجة لوسائل الإنتاج وقوى الإنسان, أي عندما استطاع الإنسان أن يجد أدواته الزراعية من الخشب والحجر.

ونتيجة لصراع بين المالك والمملوك عرف التاريخ البشري عصرا يعرف بعصر الرق فالسيد يملك و العبد لا يملك سوى عرقه , و هكذا بدأت ملامح الطبقية في صورتها الأولى تظهر للوجود .

و عليه فالصراع هو محرك التاريخ نحو الأمام و هو يتم وفق قوانين الصراع بين قوى الإنتاج و علاقات الإنتاج و بتعبير " ف. أنجلز " فالتغيرات و الثورات التي عرفتها الإنسانية . ما هي إلا تعبير واضح بدرجة أو بأخرى عن الصراعات الطبقية و صفوة القول فان :

هذا الصراع الطبقي بين مختلف الفئات الاجتماعية يؤدي في نهاية المطاف إلى نتيجة حتمية لا مرد لها . تتجسد في ديكتاتورية البروليتاريا و في هذا يقول " لينين": << التاريخ العالمي يسير بصورة لا مرد لها نحو ديكتاتورية البروليتاريا >> (1)

---

(1) لينين : الأممية الثالثة و مكانها في التاريخ في: ماركس , أنجلز, الماركسية , موسكو بلا تاريخ ص 564

و هنا يجاري " لينين " " ماركس " حينما وجه هذا الأخير نداء إلى عمال العالم من خلال كتابه الشهير ((يا عمال العالم إتحدوا))

- إن القضاء على مقاومة الرأسماليين المستثمرين لا يتم إلا بهذه الديكتاتورية لأن :

<< من لم يفهم عند مطالعة" ماركس " أنه لا يمكن أن تقوم في المجتمع الرأسمالي لدى كل نزاع طبقي جدي سوى ديكتاتورية واحدة :إما ديكتاتورية البرجوازية وإما ديكتاتورية البروليتاريا لم يفهم شيئالامن مذهب ماركس ولا من مذهبه السياسي>>(1)

لذا فالتغيير الاجتماعي وحدوث التطور والتقدم الحقيقي السريع للجماهير في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والفردية والتي تشمل غالبية السكان ومن ثم جميعهم لا تبدأ إلا مع الاشتراكية.

ومع ذلك وما تركته النظرية الماركسية من آثار وما ترتب عنها من نتائج, وإذا ما وضعناها تحت مجهر البحث يمكن القول:

- الديالكتيك منهج علمي غير محدود فهو في صيرورة مستمرة, فلماذا يتوقف في المرحلة الشيوعية؟

- التفسير الماركسي لتاريخ حقيقة صالحة في رقعة جغرافية معينة وهي بالتالي نظرة جزئية, فأنى لها أن تصبغ بالشمولية وتصبح عالمية!؟

أي لا تصدق إلا على المجتمع الأوروبي بآثاره التاريخية. أما المجتمع الإسلامي فشيء أخر.

---

(1) المرجع السابق نفسه: ص600

- وأخيرا فان افتراض خضوع إرادة الإنسان لحتمية المادية التاريخية باطل وإلا كيف نفسر ظهور الأبطال والقديسين والأنبياء المغيرين لمجتمعاتهم!؟

- أما القول الماركسي بأزلية المادة فالعلم فند ذلك خاصة مع ظهور نسبية انشطاين إذ أن المادة المتكونة من ذرات وجزيئات تنحل تدريجيا إلى أن تصبح عدما .

التغيير الاجتماعي من منظور هيجلي Hegel :

قبل إستعراض مفهوم التغيير عند هيجل لا بد من ذكر بعض الخصائص ومميزات الفلسفة الهيجلية المتمثلة كالتالي :

الدياليكتيك عند هيجل:

إن الدياليكتيك عند هيجل يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة العقل موضحا ومبينا طبيعة العقل وماهيته أو هو حوار العقل مع نفسه وخلاصته انه نمو أو تطور الفكر يجري من الرفع إلى الوضع أو من الوضع إلى الرفع ومن ثم إلى التأليف بينهما Thèse.Antithése. Synthése

وفي هذا يقول:

<<إن السير الديالكتيكي كما نفهمه هو إدراك التعارض في الوحدة أو إدراك الموجب في السالب وهذا السلوك هو سلوك الفكر النظري >>

و عليه فالديالكتيك ليس نشاطا ذاتيا لفكرة خارجية بل هو عينة روح المحتوى الذي ينتج فروعه و شعاره. إ نه الفكرة التي تنمو بفضل نشاط عقلها الخالص و هذه الحركة الثلاثية ليست قاصرة على الفكر بل إنها تتناول العالم بأسره . و كل ما هو موجود في العالم من تاريخ و حضارة و طبيعة و تغييرات سوسيولوجية .

الفكر عند هيجل :

إن وحدة الفكر إنما هي وحدة بين أنواع في الحياة العادية و بالنسبة للعقل العادي , ويعني هيجل بذلك أن العقل العادي يتوهم أن أجزاء الكل متناقضة متعارضة لا اتساق بينها ولا إ نسجام . وهو يقع في هذا الخطأ لأنه يرى مثلا الجزء فيحسبه الكل في حد ذاته .....

و عليه يصبح ما يسميه هيجل " بالمطلق" وهو وحدة الأطراف المتناقضة في وحدة شاملة , كما يصبح الأساس الأول الذي يوصلنا إلى الحقيقة هو الاعتراف باتحاد الأضداد و انسجامها فكل إثبات يتضمن نفيا و كل نفي يتضمن إثباتا .

فلسفة المطلق عند هيجل :

يقول " هيجل" في كتابه ((فلسفة الحق))

<< إن ما هو عقلي واقعي و ما هو واقعي عقلي >>

هذه العبارة هي مفتاح فلسفته , فالحقيقة كلها تعبر عن العقل و الكون كله يحقق وجود الفكر وعليه فالمطلق هو الروح و الاستكشاف لتلك الروح و فهمها هو الغرض من كل فلسفة و ثقافة . لقد كان المطلق في أول أمره فكرة خالصة أزلية ثم هبط إلى الطبيعة ثم عاد فاستيقظ في الإنسان ثم أخذ يحقق نفسه فيما ينشا في العالم من نظم .

و من كل ما سبق يمكن القول أن فكرة التغيير عند(هيجل) مصدرها الروح أو المطلق لان التاريخ هو تجلي لهذه الروح أو لهذه الفكرة المطلقة فهو في ماهيته سريان فكرة الروح عبر مراحل تاريخية معينة :

إن إستقراء التاريخ يبين كيف أن الناس يدخلون في علاقات إجتماعية متنوعة مشكلين جماعات و منظمات و يقيمون مؤسسات سياسية مختلفة من الأسرة إلى المجتمع إلى الدولة , وهذا كله نتاج أو بالا حرى تعبير عن الأفكار السائدة التي يتركز عليها بناء المجتمع , و الركائز العقلية التي يقوم عليها هذا البناء .

الدولـة:

هي الجوهر الاجتماعي الذي وصل إلى الشعور بذاته وهي تجمع في ذاتها بين مبدأ الأسرة ومبدأ المجتمع المدني والوحدة التي توجد في الأسرة على أنها شعور بالمحبة في جوهرها لكن جوهرها هنا إرتفع من خلال المبدأ الثاني . أي من خلال الإرادة الحرة العاقلة إلى ماهو كلي .

لذا فالدولة هي تحقيق الفكرة الأخلاقية وهذه الأخيرة هي الإرادة العاقلة التي تعقل ذاتها, والدولة هي تحقيق الحرية العينية, وبما أن الحرية هي جوهر العقل والدولة هي الجانب الموضوعي للعقل. فان الحرية هي جوهر الدولة.

إن التغيير الاجتماعي عند" هيجل" لا يمكن أن يحدث إلا إذا تجلت فكرة المطلق فيه, وما تطور الأسرة فالمجتمع المدني فالدولة إلا نتاج لتجلي الروح.

من جهة أخرى فالتغيير الاجتماعي لن يتحقق إلا إذا كانت الدولة جيدة وأخلاق الناس متينة وهذا النوع من التقدم والتغيير ممكن عن طريق فعل الصفوة المختارة من أبناء الدولة غير أن عمل هؤلاء الصفوة لن ينجح إلا إذا كانت أفكارهم ومشاعرهم ومصالحهم مطابقة للعقل و هي خير من الأنظمة الموجودة وبالتالي يكون اصدق من هذه المؤسسات الموجودة وأقرب إلى الكلي, فالتاريخ إذا وعلى هذا الشكل يصبح تاريخا كليا.

فما معنى التاريخ الكلي حسب هيجل؟

سبق و أن عرفنا بان التاريخ هو تصاعد الفكرة الأساسية نحو الفكر الكلي . فكل ما كتبه "هيجل" عن الكون يقوم على أساس إبراز العقل عاملا بصورة متصاعدة في الأحداث التي ليس فيها أي حدث عارض بل كل شيء مندمج في "حياة الفكر " و من هنا فان التغيير الاجتماعي الذي عرفته المجتمعات عبر مراحلها التاريخية ما هو في جوهره إلا تغييرات الوعي و العقل عبر تلك المراحل و دور الفيلسوف في هذه الحالة هو البحث عن الأسباب و الأحداث لأن الواقع هو تموضع العقل و تجسده في الطبيعة بما فيها الحياة الاجتماعية .

Rasionaliser la nature Y compri la vie sosiale

كما يشترط "هيجل" علاوة على العقل في مسالة التغيير الاجتماعي عامل الحرية و التي هي ماهية الروح و معدن التاريخ , فالإنسان الخاضع للقيد و للحتمية و للعبودية تنزع و تسلب منه كل مقومات التغيير. لذا نرى أن " هيجل" لم يعر أدنى اهتمام للحضارات و القبائل الأمريكية و الإفريقية في ترتيبه العام للحضارات و للتاريخ الكوني , ذلك أن الحرية لم تتحقق إلا عند الإفريقيين الأحرار .

إلا أن التغيير الاجتماعي عنده بلغ مستوى أرقى من المستويات التي ذكرناها آنفا بفضل المسيحية التي وحدت مقولتا << الخاص و العام >> في وعي المواطن

و جعل "هيجل" من الفكر القومي مبدأ منتشرا في جميع مجالات الحياة الاجتماعية في الدين , في التعليم , في الفن ... الخ

و قد تحل لحظة العدم السياسي فلا يحدث التغيير الاجتماعي فيندثر الفكر القومي دون أن يموت وينتقل من القوة إلى الفعل دون أن يفنى تاركا المجال إلى شعب آخر . و كأن من حسن حظ الإنسانية أنه كلما إندثرت حضارة قام شعب آخر و رفع مشعل الحضارة الإنسانية بيده و قادها إلى وجهة معينة كما هو الحال الآن في زمن العولمة بقيادة و.م.أ USA .

رأينا كيف أن التغيير الاجتماعي حسب " هيجل " مبني أساسا على ما يسميه بالمنطق الجدلي و هو ما أجمع النقاد على تسميته بالمثالية الديالكتيكية , و رأينا كيف أن العقل يتجلى في أسمى مظاهر التغيير الاجتماعي , أي حينما يتحقق من تطور الأسرة إلى المجتمع المدني ,فالدولة التي ترمز في نظر "هيجل" إلى العلاقة الموجودة بين عالم السياسة و المجتمع من جهة و التاريخ من جهة أخرى حيث تتجلى بالطبع فكرة المطلق . وهذا المطلق حسب هيجل" لا يمثل سوى سريان فكرة الروح عبر مراحل تاريخية معينة ما.

ولكن ومع كل ذلك لم يسلم" هيجل" من بعض الانتقادات التي أجمع عليها النقاد وهي كالتالي:

فبالنسبة للمنطق الجدلي: صحيح أن كل شيء مدين بوجوده إلى نقيضه, وأن التاريخ هو صراع بين المتناقضات وبأنه حينما يحقق نظاما إجتماعيا كل مافيه من إمكانيات يبدأ بالإنحلال وتتولد من باطن نفسه قوى تحطمه وتقيم أنظمة يتوسع فيما يدعيه أكثر مما يجب لأنه يقر بالصراع الدائم بين النقائض وكان الطريق إلى الحقيقة لا يخرج عن هذا الإطار . كما أن الصيرورة الدياليكتيكية التي جاء بها "هيجل" قد علمت الناس عبادة القوة وقد ساند هو نفسه رجل اسمه" نابليون بونابرت" حين حاول أن يدخل العلاقات البرجوازية إلى ألمانيا .

كان " هيجل" نفسه يتجاوب مع الثورة الفرنسية ورحب بدخول جيش" نابليون" إليها أي إلى ألمانيا باعتباره التجسيد التاريخ بشكل جديد وأخيرا فان فكرة "هيجل" كانت تهدف إلى ترسيخ الاستعمار وهي فكرة عنصرية للروح المطلقة بل ذهب إلى أبعد من ذلك و يسمي " نابليون" الروح المطلقة على جواد أشهب و لكن بعد مدة عشرين سنة من ذلك قوى الحكم الملكي الإقطاعي في ألمانيا و الذي كان على رأسه " فريدريك – وليم الثالث" كان " هيجل" قد فقد أفكاره الثورية و أصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسيا.

<u>مفهوم التغيير" الإصلاح" في نظر الأفغاني:</u>

كان هدف جمال الدين الأفغاني في بداية طريقه الإصلاحي مقاومة الاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية مرتبطة بالرابطة الإسلامية كان هذا هدفه السياسي .

كما كان يريد بث روح جديدة في الشرق حتى ينهض بثقافته و علمه و تربيته و تنقية العقيدة من الخرافات و الأوهام . و قد تيقن السيد" جمال الدين الأفغاني" بأن لا سبيل إلى إيقاظ المسلمين من نومهم إلا بتعليمهم و تثقيفهم من خلال إنشاء مدرسة جديدة من الكتاب تحرك الشعور والهمم , ذلك أن عصر الأفغاني سادته ظاهرة التواكل الذي كبل العقول عن التفكير إتكالا على القضاء و القدر , و قد كان الأفغاني يكافح

و بكل قوة هذه الظاهرة بإعطاء مفهوم جديد للقضاء و القدر يبين فيه أن القضاء

و القدر يعدا من أصول الدين و العقائد في الإسلام و قام الإفرنج بتأويلها و حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا: << إن المسلمين في فقر و تأخر في القوى الروحية الحربية و السياسية على سائر الأمم و حتى تفشى فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب

و النفاق و تفرقت كلمتهم و جهلوا أحوالهم الحاضرة و المستقبل و غفلوا عما يضرهم وما ينفعهم و قنعوا بحياة يأكلون فيها و يشربون و ينامون , ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة>> (1)

---

(1) الأفغاني و عبده : العروة الوثقى - دار الكتاب العربي لبنان 1970 ص 89

و يظهر أن الأفغاني يريد أن يبعث في نفس الإنسان الشعور بالعزة و الكرامة و المجد من خلال محاورة العقول و تربية النفوس مخلصا العقيدة الإسلامية من البدع . و هنا نلاحظ أن الشيخ" عبد الحميد ابن باديس" كتب مقالة شبيهة بمقالة الأفغاني إذ يؤكد فيها الشيخ ابن باديس مثلما فعل الأفغاني على أن الإيمان بالسببية ووجوب إستخدامها في العلم ضرورة لا مفر منها مع أن الإنسان ضعيف وهو في حاجة دائمة إلى ربه كما أنه ليس في الاعتماد على الله ما يعارض مع حثه على البحث و العمل. وباختصار يذكر" الأفغاني" بشروط التغيير الاجتماعي والتي يرى فيها أن نيل الأمم السعادة والريادة لا يتم إلا بها:

الأول: صفاء العقول من كدر الخرافات وصدا الأوهام والإسلام يقتضي ذلك لأن أول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام.

الثاني: أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرق طامحة إلى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق لأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني.

الثالث: _أن تكون عقائد الأمم مبنية على البراهين القومية والأدلة الصحيحة وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في قواعدها وترتفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها.

الرابع: أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعلم سائر الأمم وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها .

الخامس : الجمع بين التعليم النظري والعملي لأن عصره سادت فيه العلوم النظرية والآراء الفلسفية والدراسات التاريخية وهذا أحد أسباب تأخر الشرق حسب الأفغاني . وفي هذا يقول :<< كلما دخل دماغ التلميذ شيء من العلم أجبر أن يعمل بأعضاء جسده شيئا من العمل, فيعمل بالحدادة مثلا والنجارة والبناء في المدرسة مع رفاقه ويعاني تربية الحيوان فيها, فيستحلب الأبقار ويصنع الجبن ويستخلص السمن والزبدة وغير ذلك مما ينفعه جسديا>> (1)

---

(1) جمال الدين الأفغاني : تحقيق د/ محمد عمارة الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص280 .

أما محتوى التعليم فيرى بأن العلم ليس خيرا في ذاته أو شرا في ذاته وإنما التعليم الصحيح هو الذي يقود الأمم إلى السلام والرخاء والعدالة الاجتماعية لا للحرب والفناء.
وفي الأخير: يرجع الأفغاني كل شيء إلى العامل البشري أي الإنسان طبقا للآية الكريمة<< إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم >> *

وفي هذا الجانب الاجتماعي المهم نراه يتفق مع تلميذه"محمد عبده" الذي أخذ عنه الكثير وتأثر به واهتم بهذا الجانب التعليمي طيلة حياته.

وما يمكن قوله هنا هو أن الشيخ" محمد عبده" إقتصر حدوث التغيير الاجتماعي على الإصلاح الديني التربوي ومن ثمة كانت نظرته أقل طموحا وأهلا من أستاذه الأفغاني ذلك أن الإصلاح أو بالأحرى التغيير الحقيقي لا يتم بمعزل عن الإصلاح والتغيير السياسي حسب جمال الدين الأفغاني .

حقا إن النهوض بالجانب التربوي شيء ضروري في حداثته ولكن :

هل يمكن إعطاء طعام جيد ولذيذ لإنسان مريض لا يلائم طبعه فيزيد إلى علته حدة؟!

وهل يمكن إعطاء الأسبقية للتربية والتعليم في القرن التاسع عشر بينما كانت البطون خاوية والأقدام حافية؟!

إذن: نستنتج مما سبق أن التعليم وحده لا يكفي وفكرة " جمال الدين الأفغاني" القائلة بإصلاح شامل كانت أبعد نظرا وأبعد مدلولا خاصة إذا نظرنا اليوم إلى اغلب الدول الإفريقية والآسيوية التي مازالت في حاجة إلى حياة أي إلى وسائل العيش الضرورية قبل حاجتها إلى العلم والفلسفة إلا أن الشيخان إتفقا على ضرورة الإصلاح لكن الاختلاف وقع في تحديد الطرق والوسائل .فالشيخ "جمال الدين الأفغاني" يطالب بالثورة ضد الاحتلال والإستبداد السياسي والروحي.

---

* الرعد : الآية 11

أما الشيخ" محمد عبده" فقد اكتفى بالتعليم وإصلاحه ومحاربة البدع والخرافات

و أخيرا فان تيار الإصلاح يبدو أنه قد خط طريقه في ضمير المسلم منذ عصر" إبن تيمية " والذي لم يكن عالما كسائر الشيوخ و لا متصوفا " كالغزالي" و لكن كان مجاهدا يدعو إلى التجديد الروحي و الإجتماعي و أثر الشيخ ابن تيمية على الأفغاني واضح لا يجحده جاحد , فلقد كان هذا الأخير أي الأفغاني قائدا وفيلسوفا للحركة الإصلاحية الحديثة حينما حمل من القلق و نقله معه أينما حل و حين جاهد في سبيل إعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي أي تنظيم جموع الشعب و إصلاح القوانين دون أن يقصد إلى إصلاح الإنسان. لقد أدرك " جمال الدين الأفغاني" بصادق فطنته ما أصاب مجتمعه من عفونة و فساد فاعتقد أنه بدلا من أن ينصرف إلى إصلاح الأوضاع الداخلية لابد من محاربة الإحتلال و القضاء على ما يحيط به من نظم و قوانين أي العوامل الخارجية .

<u>مفهوم التغيير عند مالك بن نبي :</u>

إن التغير الاجتماعي وفقا لمنظور" مالك بن نبي" يتوقف على جملة من العوامل

و الشروط يمكن أن نستشفها مبدئيا من تلك المعادلة البسيطة التي و ضعها و المتمثلة في :

حضارة= إنسان + تراب + زمن

و دون الغوص في تحليل ذلك لأننا نعمل على شرحها في الفصول الموالية يمكن القول أن التغيير عند" مالك بن نبي" يتضمن بعدا آخرا و هو ما يسمى بالحركة أي << الجماعة التي تتغير و تتحرك , فهناك وسط إنساني يحتوي على عامل أساسي يقهر الجمود و الخمول حينما يحول الخمول إلى قيم ديناميكية حركية >>

و بالمقابل هناك وسط إجتماعي يحتوي على نصيب من الجمود و الخمول و الكسل و نقص الطاقة , و نقص الإرادة... الخ

و هذه الحركة " التغيير" حسب " مالك بن نبي " تؤدي إما إلى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية و إما أن تسوقها على عكس ذلك إلى وضع مختلف أي إلى حضارة أو إلى الانهيار.

و المجتمعات الجديدة باكتساب صفة المجتمع عليها بأن تشرع في الحركة أي في تغيير نفسها بهدف الوصول إلى غايتها , و المجتمعات التي تسمى مجازا مجتمعات , فهي مجتمعات ليس لديها مخطط تسير وفقه و لا توجد غاية ترمي إلى تحقيقها .

و هو ما يسميه " بن نبي" مرحلة ما قبل الحضارة.

إذن كل جماعة تتغير و تتحرك جديرة بكلمة مجتمع , و كل جماعة لا تتطور و لا تتغير تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة مجتمع . و حركة التغيير الاجتماعي تتم في مرحلة تاريخية معينة من تاريخ هذا الشعب أو ذاك حينما تتهيأ و تتوفر جملة من العوامل و الشروط الخاصة بتلك الحركة أو التغيير, و هي تعكس حسب – بن نبي- ما يسمى "ميلاد" هذا المجتمع Naissance de cette societè

لكونها تنقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى و من وضع إلى وضع أخر مغاير للوضع الأول و عليه فميلاد المجتمع يشكل نقطة إنطلاق لحركة التغيير التي تظهر على شكل نظام جديد للعلاقات بين أفراد المجتمع و قد تبدأ بفرد واحد أو بفكرة يكون بمثابة نواة للمجتمع الوحيد كالأنبياء و الرسل (ص) , أو المصلحين

و الدعاة و العلماء و الفلاسفة و هذا ما قصده القران الكريم في قوله تعالى:

<< إن إبراهيم كان امة >>*

و هذا يعني أن احتمال حدوث حركة التغيير في المستقبل تحمله فكرة يمثلها هذا الإنسان أو ذاك و هذه الفكرة تتجسد فيما بعد على أرضية الواقع من طرف أفراد المجتمع .

إن حركية المجتمع حسب –بن نبي- مرتبطة بوضع ذي عناصر ثلاثة:

أ- حركة مستمرة

ب- إنتاج دائم لأسبابها

ج- غايتها (1)

---

* النحل :الآية 120

(1) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - ت/ عبد الصبور شاهين دار الفكر ص17

و يقصد بذلك تلك الجماعة (المجتمع) التي تتغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير.

و بطريقة أخرى فان حركة التغيير حسب "بن نبي" تقوم على عناصر ثلاث هي كالتالي:

- حركة يتسم بها المجموع الإنساني
- إنتاج لأسباب هذه الحركة
- تحديد إتجاهها . (1)

إذن لا يمكن أن نتكلم عن تغيير إجتماعي وعن دخول هذا الشعب أو تلك الأمة للتاريخ لتصنع مصيرها و تغير من مجرى حياتها إلا بمدى وعيها لتلك الحركة التي تقوم بها و تحديد أسباب و دوافع تلك الحركة مع وضع خطة أو تصميم بعيد كل البعد عن الإرتجالية و العاطفية لضمان تحقيق غايتها المنشودة و قد ذكر" مالك بن نبي" هذه العناصر الثلاثة التي تصون تحقيق غاية تلك الأمة لبناء صرح حضارتها محددا إياها كالتالي:

أ- تأثير عالم الأشخاص بهدف تحقيق غاية

ب-تأثير عالم الأفكار من خلال وضع نموذج إيديولوجي

ج- تأثير عالم الأشياء و ذلك بتوفر جملة من الوسائل. (2)

و التركيب بين هذه العناصر الثلاثة هو الذي يحقق التغيير بشرط وهذا دائما حسب (بن نبي)لابد من وجود ما يسميه **بالبذرة الدينية** : أي العنصر الديني الذي يقوم بعملية الربط بل و التفاعل بينهما ذلك أنها. أي العوامل الثلاثة السالفة الذكر لا تؤدي وظيفتها على أحسن وجه إلا من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية .

مستشهدا بحجة إستقرأها من التاريخ الإسلامي المتمثلة في ذلك الميثاق الذي ربط الأنصار بالمهاجرين.

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 15

(2) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 23

من هنا و انطلاقا من تلك البذرة الدينية التي تجعل عناصر و شروط الحركة أو التغيير تتفاعل فيما بينها. فإن التغيير الاجتماعي حسب " بن نبي" لا يحدث إلا على أساس حضاري . أما الحل السياسي و الحلول الأخرى المستوردة من الشرق أو الغرب أو ما يسمى الآن بالعولمة فلا جدوى منها , بل على النقيض من ذلك زادت من شقاء و تعاسة و تبعية , تلك الشعوب العربية و الإسلامية لغيرها .

هكذا إذن يبدو مفهوم التغيير الاجتماعي عند المفكر الجزائري " مالك بن نبي " في الحركة وأي حركة؟ الحركة التي يقوم بها المجتمع ذلك أن الدافع الأساسي

و الحافز الأصلي للبشر سواء في علاقاتهم مع الطبيعة أو مع بعضهم البعض هو التغيير و بناء صرح الحضارة .

و إذا كان الكون قائما على التنوع و التغيير و الحركة ...

فأين نحن منها في الوطن العربي و الإسلامي ؟

الاستنتاج:

و ما يمكن قوله في الأخير هو أن نظرة" مالك بن نبي" في مسألة التغيير الاجتماعي مقارنة مع غيره من الماركسيين و الهيجليين و الإصلاحيين و الأفغانيين (نسبة إلى جمال الدين الأفغاني) مختلفة تماما , فإذا كان ماركس يركز على الجانب المادي

و العوامل الاقتصادية في حدوث أي تغيير سوسيولوجي فان التغيير الاجتماعي في نظر" مالك بن نبي " لا يتوقف على ذلك فقط بل يعتبر المادة عاملا من العوامل المساهمة- و هذا ما أشار إليه في تحديد عناصر الحضارة ب (عالم الأشياء) و عليه يمكن إعتبار النظرة الماركسية نظرة جزئية ليست شاملة جامعة مانعة بلغة المنطق

و هذا ما سبق وأن بيناه في نقدنا للماركسية حينما طرحنا السؤال : فأنى لها بالعالمية ؟

لذا فان" مالك بن نبي" لم يمنح الأولوية و الأسبقية للمادة و لوسائل الإنتاج و لم يوقف حدوث التغيير الاجتماعي عليها فقط و لوحدها كما فعل ماركس . و لكن منح لكل عنصر قيمة في ذاته .

و في حدود مجال إستعمالاته كما رأى" بن نبي" أن أول عمل يجب أن يقوم به هذا المجتمع أو ذاك في تغيير نفسه مشروط بتحديد ماهية شبكة العلاقات الاجتماعية

و في هذا يقول بن نبي :<< فإن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده >> (1)

و إذا كان ماركس قد تكلم عن العلاقات الاجتماعية من خلال البنية التحتية و البنية الفوقية UN Frastructure et Superstructure معتبرا أن البنية التحتية ماهي إلا انعكاس للبنية الفوقية مقرا بذلك كيف أن وسائل الإنتاج هي التي تحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية ¸ فان " مالك بن نبي " يذهب اتجاها آخرا في هذه النقطة ذلك أن العلاقات الاجتماعية عنده تقوم على التآزر

و التعاون و التكامل بين أفراد المجتمع مستندا إلى ذلك بالحديث المشهور <<المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا>> وكما قال المصطفى عليه السلام << لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه>> إذ التغيير الاجتماعي ينطلق بتغيير شبكة العلاقات الاجتماعية ومنظومتها وطبيعتها أي الطبيعة النابعة من بذرتها الدينية الفعالة.أما بالنسبة للتفسير الهيغلي لحدوث التغيير الاجتماعي والذي اعتبره صراع دياليكتيكي بين متناقصات الوعي أو الفكر يمكن القول أن الفكر أو العقل حين يتجسد في الطبيعة بما فيها الإنسان والمجتمع فإن أثره واضح في عملية التغيير" العقلية الطبيعية Rationaliser La nature Ycompri Lhomme

لكن أن نجعله عاملا وحيدا وكافيا في حدوث التغيير الاجتماعي فذاك مالم يثبته تاريخ الإنسانية. ومن جهة أخرى صحيح أن الفكر أو العقل أو الوعي طريق يوصل الإنسان إلى إكتشاف الحقيقة لكن هناك مجال وحدود لإستعمال هذا العقل أو الوعي البشري . كما أن هناك سبل أخرى لاكتشاف الحقيقة << المجال الغيبي>> .

وأخيرا هل العقل حكم التاريخ فعلا كما إدعى هيجل ؟

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص25

فإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر ظواهر اللاعقل والشر والفتن والحروب والأهواء والمصالح والطغاة؟

وإذا كان" الأفغاني" يرى في مناهضة الاحتلال ومقاومته وإصلاح المنظومة التعليمية كطريق موصل إلى التغيير الاجتماعي حتى أن الفيلسوف الفرنسي"أرنست رينان " وغيره إعتبروه المثقف الحقيقي بما لديه من خبرة في السياسة العالمية

و الصراعات الاستعمارية بين الإنجليز والفرنسيين والألمان –وعادات الأمم من مصر إلى الهند إلى إيران فان "بن نبي " يجاريه في ذلك قائلا:

<<إذن فنهضة العالم الإسلامي إذا, ليست في الفصل بين القيم وإنما هي

في أن يجمع بين العلم والضمير بين الخلق و الفن , بين الطبيعة و ما

وراء الطبيعة حتى يتسنى له أن يسير عالمه طبقا لقانون أسبابه ووسائله وطبقا لمقتضيات غايته >> (1)

لكن" بن نبي " يرى أن الخطأ الذي وقع فيه المحدثون و دعاة الإصلاح أو التغيير هو كونهم لم يتجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإسلامي كما أن المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي مما تمخض عنها ما يسميه" بن نبي" بقابلية الاستعمار.

لكن أين يقع التغيير بشكل جوهري حسب بن نبي ؟

على الجانب المادي أم على البنية الاجتماعية ؟

ما دور العوامل الموضوعية و العوامل الذاتية في عملية التغيير الاجتماعي ؟

ثم ماهي وسائل التغيير الاجتماعي وأسسه و شروطه وهل هي كافية ؟

ذلك ما سنتناوله في الفصل القادم .

---

(1) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ت/ عبد الصبور شاهين ص192

الفصل الثاني

- أنواع التغيير:

- التغيير النفساني .

- التغيير الإجتماعي .

- التغيير الثقافي .

- التغيير السياسي .

- التغيير الإقتصادي .

التـغيير النفسـانـي:

* تمهيد
* طرح المشكلة
* منطلق التغيير الاجتماعي (التغيير النفساني)
* مصادر القوة والطاقة النفسية :

أ- القرآن الكريم

ب- السنة النبوية

* طبيعة النفس البشرية ومكوناتها :

أ- الجانب البيولوجي

ب- الجانب الاجتماعي

* كيفية إزالة التعارض بين الجانبين
* استقراء التاريخ يثبت صحة ما ذهب إليه (مالك بن نبي)

الاستنتـــــــاج :

*التغيير الاجتماعي بدايته التغيير الداخلي (النفس البشرية)

لكل عصر مستجداته , ولكل وضع قضاياه ومشكلاته ولكل جيل إرهاصاته وبين تعقد المشكلات وتفاقم المعضلات وبين متطلبات حلولها و حاجة الإنسان لمواجهتها تتهيأ الشروط الضرورية اللازمة لمواجهة أحداث التاريخ بموضوعية تتجلى فيها إرادة الإنسان الجادة في حل المشكلات . ومن مستجدات هذا العصر, معاناة الإنسان المتحضر فقد فيه القدرة على التحكم في نفسه . في وقت زاد تحكمه في العلم والتكنلوجيا سيطرت عليه الغرائز و الأهواء و صار رهين عواطفه ومشاعره وابتعد عن العقل والروح وهو ما أفضى به إلى حال من الاستيلاب ولئن رجعنا إلى عصرنا هذا عصر العولمة , عصر الفلسفات المعاصرة ومذاهبها وإيديولوجياتها السياسية والاقتصادية و الاجتماعية وجدناها في الثراء الحضاري المادي قد أفادت حتى أغنت و أثرت حتى كفت فصار ذلك الثراء ينمو على الثراء الحضاري المنمي لفعاليات الإنسان فضعف من الناحية النفسية والعقائدية ووصل إلى أحط المستويات النفسية و الروحية و المعنوية فأصبح خاضعا لسلطان الأهواء و فقد توازنه النفسي لذا حاول المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله معالجة هذه المعضلة في إطارها الاجتماعي مبتدئين بالإطار النفسي .

<u>التغيير النفساني :</u> إن أزمتنا حيال الحضارة ليست بالإسلام بل الأصح أن نقول إن الإسلام في عصرنا هذا في أزمة بالمسلم . هذا المسلم لا يزال يحمل بذور الانطواء و السلبية و الضعف و الإحباط النفسي و الضعف أمام ضرورات التطور و الحياة فبقدر ما تستطيع النهضة التي تبني نفسية الإنسان بناء قادرا على مواجهة التحدي بسائر أشكاله فكريا كان أم اقتصاديا أم سياسيا بقدر ما نستطيع أن نجعل الإسلام قادرا على الحركة . و لكن كيف يحدث التغيير الاجتماعي و ينتقل المجتمع من التخلف إلى التطور يواكب مختلف التغيرات و يتكيف مع مختلف المستجدات خاصة العولمة و ما ترتب عنها من نتائج في زماننا هذا ؟

يرى المفكر الجزائري "مالك بن نبي " أن التغيير الاجتماعي إنما ينطلق من التغيير الداخلي.

أي التغيير النفسي للفرد لما له من دور بالغ الأهمية مستلهما ذلك من مرجعيتنا المتمثلة في القرآن ا لكريم . و قد ركز " بن نبي" على الفكرة الروحية من خلال إهتمامه بالتعليم و المناهج التعليمية و الأجهزة التوجيهية على تكوين المعاني الربانية في أنفسنا وهذا ما أشار إليه القران الكريم في قوله تعالى : << و نفس وما سواها فألهمها فجورها و تقواها قد افلح من زكاها و قد خاب من دساها >>. *

فإذا ما تغيرت الأنفس تغير المجتمع , و تحول مجرى التاريخ و هذا ما تهدف إليه الآية القرآنية:<< إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم >> *

و تستمد النفس قوتها و طاقتها عند الإنسان المسلم من روحها أي ما يسميه "بن نبي" بالبذرة الدينية و التي تعمل على صفائها و تنقيتها من الأهواء و الغرائز الفتاكة

و توجيهها وفقا لغايتها . لأن النفس البشرية إذا ما طغى عليها جانب دون آخر فقدت توازنها . لذا يعمل الإنسان بداع من طبيعته من أجل الحفاظ على النوع و بوحي من ضميره من أجل تقدمه .

فهو إذا مزود بسلطة مزدوجة وأي خلل في هذه السلطة المزدوجة أي الغريزة

و الضمير يؤدي إلى حالة مرضية تعرف في التحليل النفسي " بالكبت " و في هذا يقول" بن نبي" :

<< فنفسية الفرد في المجتمعات التاريخية على الأقل مفعمة بالنزعة الدينية تلك التي تعد جزء من طبيعته و هو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريف الإنسان بأنه حيوان ديني و هو بذلك يحدد جانبا من الأساس النفسي العام في أفراد النوع و كل فرد يبني شخصيته على هذا الأساس>> (1)

---

* الشمس : الآية 7- 8- 9- 10

* الرعد: الآية 11

(1) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 64

إذن الإنسان بنفسه قبل أن يكون ببدنه أعني أن الفرد يتأرجح ما بين ضميره وعقله وغريزته وعاطفته ولكن الضمير أولويته وأهميته واضحة وقد صدق الشاعر حينما قال :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

إن لازدهار الحضارات وسقوطها سنن كونية والعيب كما يقال ليس في السقوط ولكن التمادي في هذا السقوط . ومن ثمة حري وجدير بالإنسان المسلم أو" الجديد" كما يسميه " مالك بن نبي" أن يغير من وضعه النفسي الحالي فتكون حينئذ لديه الريادة والقيادة من جديد ويبني صرح حضارة جديدة يسعد بها آمته والبشرية معا . ولن يتأتى هذا حسب" بن نبي" إلا من إنسان مسلم متزن يستعمل عقله ويقوده ضميره ويخضع غرائزه له . أعني التوفيق بين جانبه البيولوجي بما فيه الغريزي وجانبه الفكري وفي هذا يقول "مالك بن نبي ":

<< فالإنسان يجب أن يشرب , ويأكل وينسل ويملك ويكافح من أجل استمرار النوع ولكن يجب أن يراقب هذه الأعمال الأولية جميعها وأن يوجهها لغايات تتفق وتقدم النوع .وهو بهذه الطريقة يشترك واقعيا في عمل الله عز وجل ومع ذلك فهو محكوم إذا ما نظرنا إلى الأمر من الوجهة الدينية تبعا لهذا الاشتراك المنوط بتكليفه الديني أعني تبعا لخضوعه لقانون التقدم الأخلاقي فإذا ما حملته طبيعته على العمل فان ضميره هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخيا وأخلاقيا >> (1)

لقد تصور " مالك بن نبي" النفس البشرية ومختلف الدوافع لسلوك الإنسان من خلال ما اقتضته الحكمة الإلاهية في كونه متكون من جانبين متقابلين .

الأول : وهو الجانب الترابي أو المادي أوالشهواتي , وهو ذلك الجانب الذي يشترك فيه الإنسان مع الحيوانات, ولكنه يختلف في أسلوب الممارسة و الأهداف إختلافا واضحا عن الحيوانات .

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص65

الثاني : وهو الجانب الروحي المتمثل في الروح الالاهية التي تعلو الإنسان إلى درجة الملائكة وإن كان الناس يختلفون عن الملائكة في جانب الإرادة وإمكانية فعل الشيء ونقيضه وحرية الإختيار بفعل الحرية التي منحها الله للإنسان والتي سلبها من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولكن قبل ذلك لابد من تعريف الدوافع .

فالدوافع:

يمكن أن نعرفها ببساطة بأنها حالة داخلية جسمية ونفسية فطرية أو مكتسبة تثير السلوك وتحدد نوعيته واتجاهه وتسير نحو تحقيق أهداف معينة من شأنها إرضاء جانب معين من جوانب الحياة الإنسانية . والحديث عن الدوافع والغرائز من أهم الموضوعات التي يهتم بها علم النفس إذ يتطرق إلى نوعين من الدوافع الإنسانية المادية الشهوية والروحية السامية وكذلك الدوافع الفطرية التي يولد الإنسان مزودا بها في شكل إمكانيات واستعدادات تؤهله لممارسة دور و وظيفة المكلف بها من قبل الخالق(الخلافة) وتلك التي يكتسبها أو يتعلمها من مجتمعه بفعل مختلف ميكانيزمات التربية والتطبيع الاجتماعي وهي دوافع يكتسبها بفعل قدرته على التعلم و الاكتساب . وهي قدرة أودعها الخالق في الإنسان من أجل أداء وظائفه والتي إستحق من أجلها التكريم و التفضيل . إذن هناك دوافع كما يرى" بن نبي" تحرك سلوك الإنسان ويكون واعيا بها , فاهما إياها , منتبها إليها, وهي ما يطلق عليها الدوافع الشعورية , وهناك دوافع السلوك مالا يكون الإنسان منتبها إليها ولا واعيا بها تحرك سلوكه دون علم منه وهي الدوافع اللاشعورية التي تكلمت عنها مدرسة التحليل النفسي بقيادة " فرويد" وفي هذا يقول" مالك بن نبي ": << فهو يستقبل عند ولادته ميراثا نفسيا معينا, كما يستقبل تراثا حيويا , هذا الميراث هو الذي يكون مجال اللاشعور ويمثل رصيد العقائد والخرافات التي كدستها الإنسانية في نفسيتها منذ بدء التاريخ>> (1)

وهو يعني بذلك الإنسان الفطري أو الطبيعي .

---

(1) مالك بن نبي: المصدر السابق نفسه ص 63

لا ننكر بأن هذه الأخيرة قد أفادتنا وبشكل واضح في تشخيص الكثير من حالات عدم الإستقرار النفسي و الأمراض النفسية ذات الأساس الوظيفي كالقلق . و التعصب والإكتئاب والتخلف الدراسي .....الخ

ويجب أن نشير هنا إلى أن النظرية التحليلية (التحليل النفسي) بأكملها التي يتزعمها العالم النمساوي " سيجموند فرويد" S.Freud تعاني من جوانب القصور التي نذكر أهم جانب منها:

- الإنسان ليس عبدا لغرائزه , وجميع سلوكا ته لا تفسر بإرجاعها إلى رغباته المكبوتة و شخصيته لا تدرك كلية من خلال اللاشعور . وإن كان القرآن الكريم قد أشار من قبل إلى هذه الثنائية في أكثر من موضع نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : << زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين و القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا>>* و هذا ما أشار اليه د/ نبيل محمد توفيق السمالوطي بقوله:

<<وهذا يعني أن الله هو الذي أوجد في الإنسان هذه الحاجات والشهوات ولكنه نظم له أسلوب ممارستها بشكل يحفظ للإنسان بقاءه وكرامته , واتزانه , وسموه , فالأكل

و الشراب لازم لبقاء الإنسان , والجنس لازم لبقاء النوع الإنساني للقيام بواجبات الخلافة , والقتال والعدوان والملكية والحنو والوا لدية ...الخ , فهي دوافع يعترف بها الإسلام ويعترف بحق الإنسان في ممارستها في إطاراتها المشروعة>>(1)

كما حددها سبحانه وتعالى في قوله: << قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده

و الطيبات من الرزق قل هي للذين امنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون>>*

---

* آل عمران الآية 14

(1) د/ نبيل محمد توفيق السمالوطي: الإسلام وقضايا علم النفس الحديث ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص87

* الأعراف الآية 32

لذا نلاحظ هنا كيف أن " بن نبي" يربط بين الجانب الطبيعي الفكري والجانب الروحي الأخلاقي إذ يقول : << وهو المجال الذي يصبح فيه الأفراد المهذبون المثقفون وسائل في خدمة الضمير , كما يتم اتصالهم بالحياة عن طريق الضمير لا عن طريق الغريزة مباشرة>>(1)

وهذا يعني أن الروح تجعل نشاط الغرائز ومختلف الطاقات الحيوية و توجهها لتحقيق غايات سامية .أي أن الله خلق الإنسان بدوافعه وخلق له ضوابط تنظم ممارستها وهنا تبرز التعادلية الدقيقة في معالجة الإسلام للدوافع قال تعالى: << كلوا واشربوا ولا تسرفوا >>*

وعند ما علم عليه الصلاة والسلام عن المسرفين في العبادة والذين يصومون الدهر كله والذين لا يتزوجون النساء قال عليه السلام وهو أخشى المؤمنين لله يقوم وينام , يصوم وينظر ويتزوج النساء وخرج بقاعدة وهي : " فمن رغب عن سنتي فليس مني"

إذن وكما يرى " بن نبي " فان الفكرة الروحية عندنا لاتنكر حق الإنسان في ممارسة دوافعه كما تذهب بعض المذاهب المتطرفة في الرهبانية والصوفية وكذلك فهولا يدعو إلىالإسرا ف في ممارسة الشهوات دون ضابط , كما تدعو النزعات الإباحية المتطرفة كالماركسية والوجودية و حركة" الهيبز" و الخنافس في الغرب , و بهذا يبرز " مالك بن نبي " في أسلوب معالجة الإسلام للنفس البشرية و الدوافع الإنسانية و التي تميزه عن غيره من المفكرين . فكل سلوك يكمن وراءه دافع أو دوافع معينة بحركة و توجهه نحو هدف معين. إذن يربط"بن نبي" بين الأمن النفسي و بين التقوى و الالتزام بالفكرة الروحية التي تخلصه من عقدة الخوف من الموت لإيمانه بأن لكل أجل كتاب و لن تموت نفس حتى توفى أجلها . كما تحرر الفكرة الروحية الإنسان من القلق و الكآبة و الجزع و تخلص النفس من الشوائب كالحسد والنميمة و النفاق و الرياء و تصون توازنه وراحته النفسية

---

(1) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 65

* الأعراف : الآية 31

و قد كان عليه الصلاة و السلام يقول لبلال عن الصلاة << أرحنا بها يا بلال >> و صفوة القول أن أهم الحاجات الأساسية النفسية للإنسان حسب " بن نبي" تتجسد على النحو التالي :

1- الحاجة إلى التعبير عن الذات الجزائرية العربية المسلمة بأن يكون لها صوت مسموع وسط الجماعة من خلال إيمانه بروحه أي عقيدته.

2- الحاجة إلى الإنتماء : فالإنسان إجتماعي بطبعه يحتاج دائما إلى الانتماء إلى جماعات إجتماعية يشعر من خلالها بأنها جزء من هذه الجماعة الأسرية ثم جماعة المسجد والمدرسة و جماعة الأصدقاء فالمدينة فالدولة فالأمة (العالم الإسلامي) فالإنساني .

3- الحاجة إلى الغذاء و الأمن مصداقا لقوله تعالى :<< فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع و أمنهم من خوف >> *

4- توفير الغذاء و الأمن يؤدي بالضرورة حتما إلى تحقيق الاستقرار النفسي و من ثمة يحرك التاريخ و يغير المجتمع من أوضاعه نحو نهضة شاملة و يصبح موضع تقدير المجتمعات المحيطة به و نموذج لغيره من الأصدقاء أو الأعداء لأن الأثر كل الأثر بالمعنويات لا بالماديات .

و في هذا نجد المفكر " مالك بن نبي" يؤكد على هذه الحقائق التاريخية فيقول :

<< و لكن أوضاع القيم تتطلب في عصور الانحطاط بحيث تبدو صغائر الأمور ذات خطر كبير فإذا ما حدث حادث إنهار البناء الاجتماعي إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن و العلم والعقل فحسب , لأن الروح و الروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض و تتقدم , فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة و آنحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض >> (1)

---

* قريش : الآيتان 3-4

(1) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ص 26

لقد إشتبك العرب مع اليهود في العديد من المرات سنة 1948 وسنة 1956 وسنة 1967 أين انهزمت دولهم خلال هذه المعارك هزائم شائنة وأشدها خزيا لأن الجندي العربي كان محطما ومنهارا نفسيا . أما اليهود فقد إستغلوا طاقاتهم الروحية ودوافعهم النفسية فأيقضوا بها أمتهم من سبات , وجمعوا طوائفهم من شتات, وأحيوا بها لغتهم من موات حتى واجهونا ومعهم التوراة , وليس معنا القرآن ! تشبثوا بتعاليم التلمود , وسخرنا نحن من البخاري ومسلم مع العلم أننا نملك أعظم طاقة وثروة روحية تجعل نفسية المسلم هي الغالبة القاهرة ولكننا في غمرة ساهون وعن مصادر قوتنا غافلون . ولا عجب إذن أن يهزم مليار وأزيد مليون مسلم أمام ثمانية ملايين من اليهود لأن نفسية المسلم مخربة منهارة . وعليه لا يمكن تحرير الأراضي العربية المحتلة سنة 1967 والأراضي المقدسة "القدس" إلا بإنسان عربي مسلم قوي نفسيا .(1)

كما لا يمكن تغيير الحياة الاجتماعية ومواكبة العصر" العولمة" إلا بإنسان جديد قوي نفسيا ومعنويا << فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف >> *

كما جاء في الحديث الذي (رواه مسلم).

ولتوضيح دور النفس في تغيير الظروف الاجتماعية يضرب لنا المفكر الجزائري "بن نبي" مثال عن العامل الروسي "إستخانوف "والذي رفع إنتاجه اليومي إلى الضعف مقارنا إياه بالعمل المضاعف الذي بذله الصحابة في بناء مسجد المدينة أو في حفر الخندق ففي كلتا الحالتين نجد أن النفس القوية المتشعبة بالإيمان هي التي مهدت الطريق للحضارة .

---

(1) محمد الغزالي : حصاد الغرور دار الشهاب - باتنة ص 19 (بتصرف)

* حديث شريف رواه مسلم في صحيحه

وفي هذا يقول "بن نبي " : << فنحن لا يمكننا أن نفكر في المثل الذي ضربه "إستخانوف " للطبقة العاملة في روسيا إبان تنفيذ المشروع الأول للسنوات الخمس حين رفع مستوى الإنتاج اليومي إلى الضعف في مناجم الفحم دون أن نفكر في المثل الذي ضربه " سلمان الفارسي "الذي كان يقوم بأضعاف العمل الذي يؤديه الصحابي الواحد في حفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب أو الذي ضربه عمار بن ياسر حين كان يحمل حجرين على كاهله في بناء مسجد المدينة ,حيث كان الفرد يحمل حجرا واحدا . ففي كلتا الحالتين نجد أن الإيمان هو الذي مهد الطريق للحضارة >>(1)

وهذا يعني أن قوة النفس أو ضعفها إنما يتوقف على ذلك الشعاع الروحي الذي تستلهم منه إستقامتها ومن ثمة تحرك عجلة التاريخ وفق لغايتها أو لا قدر الله سقمها فتركن إلى الجمود فتتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها كما ورد في الحديث .

وهكذا ربط" بن نبي " ربطا محكما لا إنفصام فيه بين النفس البشرية والروح التي تحملها هذه النفس. لذا نرى كيف أن الإنسان المسلم حين كان قويا نفسيا إنتصر على هجمات التتار الزاحفين من الشرق , و الصليبيين الزاحفين من الغرب وبهذه القوة الفنية والطاقة الروحية نستطيع اليوم الانتصار على ورثة هؤلاء وهؤلاء .

ولا يتوقف" بن نبي" عند هذا الحد بل يذهب إلى أبعد من ذلك مبينا كيف أن شبكة العلاقات الاجتماعية تتوقف على الجانب النفسي لأن هناك علاقة وثيقة الصلة بين الفرد والمجتمع وفي هذا يقول "بن نبي" << فهي علاقة كونية تاريخية إذ أن المجتمع يخلق الانعكاس الفردي والانعكاس الفردي يقود تطوره>>(2)

---

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين دار الفكر ص 81

(2) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 61

و هذا يعني أن صلة الفرد بالمجتمع تحكمها علاقة معينة هي أن الفرد لكي يدخل في شبكة علاقات اجتماعية معينة عليه بأن يجسد في ذاته واقعا نفسيا معينا . و هذا الواقع الذي يعد شرطا لإقرار الفرد و قبوله داخل الحياة الاجتماعية هو أيضا دوره في أعماق غيب ميتافيزيقي بمعنى أن الفرد يجد نفسه متخليا عن عدد من الانعكاسات المنافية للنزعة الاجتماعية , مكانها أخرى أكثر توافقا مع الحياة الاجتماعية .إذن توجيه هذه الطاقة النفسية يتوقف على ما تحتويه من فكرة روحية في داخلها فإما أن تخطوا خطوات نحو الأمام و إما تصاب بالجمود . و قد كان

" هد فيلد " في كتابه " علم النفس و الأخلاق " قد أشار إلى ما سماه هو بالمثال الأعلى باعتباره أقوى عامل في تقرير خلق الإنسان و في تعيين مسلكه لأنه هو وحده الذي يستطيع تنبيه الإرادة و تنظيم جميع غرائزنا و توجيهها, لنا نحن المسلمون مثلنا الأعلى في معلمناالاول الرسول(صلى الله عليه و سلم) مصداقا لقوله تعالى : << لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم

الأخر >> * و قوله أيضا : << ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا >> * و هذا يعني أن المثل الأعلى هو الذي ينظم الطاقة الحيوية في إطارها الاجتماعي . و قول الرسول عليه الصلاة و السلام << المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل >> * (رواه الترمذي)

<<هكذا إذن يظهر لنا من وجهة نظر علم النفس أن العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد . و في تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف " أنا " الفرد ثم في توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذا " الأنا" داخل المجتمع و تبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ >> (1)

---

* الأحزاب : الآية 21

* الحشر : الآية 7

* حديث شريف رواه الترمذي

(1) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص68

رأينا فيما سبق كيف أن " بن نبي" ركز على الجانب النفسي من خلال الطاقة أو الدافع الروحي في أي عمل يهدف إلى التغيير الاجتماعي .

لكن هناك عامل أخر يجب ألا نغض البصر و الطرف عنه له أثره على النفس أيضا و يتعلق الأمر بعالم الأفكار , هذه الأفكار التي تؤدي دورها ككائنات حية في شروط عضوية معينة .

و قد لا تقوم بدورها فتصبح الأنفس جثثا هامدة لا قيمة لها, لذلك لا نستغرب كيف أن الاستعمار حينما يتوغل إلى أي بلاد مستعمرة يضع نصب عينيه و هذا بعد دراسة معمقة للعاملين هما :

- العامل الروحي الديني : و هو ما بيناه فيما سبق

- عامل عالم الأفكار و الصراع فيما بينها و الذي نعمل على تحليله كالتالي :

يعلم الاستعمار أنه يكفي للتشكيك في فكرة أن يشوه منطوقها اللغوي أي الكلمة التي تتنفس معناها الحرفي . أو الشعار الذي يؤدي إلى معناها بالطريق الرمزي .فالكلمة أو الشعار يمكن أن يصبح كلاهما مركز إشعاع حرماني بالنسبة للفكرة التي تعبر عنها تلك أو يشير إليها ذاك .

كما يكون أحيانا الكاتب نفسه مركز إشعاع حرماني بالنسبة إلى كتابه أو جريدته . فمثلا الاستعمار الفرنسي في الجزائر أول عمل قام به هو محاولة طمس معالم الشخصية الجزائرية (العروبة – الإسلام – الامازيغية) بطمس فكره وثقافته.

لقد جعل الاستعمار المواطن الجزائري يشعر بالدونية من خلال الإحباط النفسي . كما غير الكثير من المفاهيم والأفكار وجعل الجزائري يشك في مفهوميته بل وفي طريقه " ظاهرة التبشير" . لكن من حسن الحظ أن من الأشياء التي لا تتغير في الصراع الفكري حقيقة و ماهية الفكرة ذاتها ككائن حيوي له وحدة عضوية.

و كل تغيير فيها يؤدي بالضرورة إلى تغيير شروط الحياة بالنسبة إليها و هي بذلك تشبه الكائن الحي فهو كائن كما هو و إن أضيف إليه شيء أو بتر منه شيء فانه لا يبقى ذلك الكائن . وهذه الحقيقة تطبق على الأفكار أيضا و في هذا يقول بن نبي : << و الاستعمار يطبق طبعا هذه الحقائق فهو تارة يحاول تجزئة الفكر كأنه يريد تقسيم طاقتها الانفجارية و أحيانا يحاول على العكس أن يجري عليها نوعا من الضرب يجعلها مقحمة في عدد أفكار ثانوية تضيف إلى حجم الفكرة الأصلية عناصر فكرية خامدة لا أثر لها سوى إضعاف سلطانها على العقول , كما لو أننا لففنا سن المسمار أو حد المنقار بلفائف من الورق أو القماش حتى لا يؤثر فيما نريد نقره أو ثقبه من الخشب >> (1)

و لتوضيح ذلك (يضرب بن نبي) مثال لمؤتمر باندونج و الذي كان يتضمن خمسة مبادئ أساسية و لكن حين جاء و فد إحدى الدول الآسيوية المشارك ضاعف هذه المبادئ لكي تكون عشرة .و هذه الإضافة التي تمت في صورة الضرب شتتت أساس و قاعدة المؤتمرو جعلته عديم الفعالية على المستوى الميداني العملي و حتى مؤتمر القاهرة ذاته لم يسلم من ذلك و بالتالي ليس من مصلحة الشعوب الافروآسيوية الإكثار من المقترحات والتوصيات لأن ذلك يزيل:

<u>أولا:</u>

- مضاء الفكرة الأساسية ثم يكون عقبة في سبيل التطبيق وهذا و ذاك في صالح الاستعمار طبعا.

---

(1) مالك بن نبي : لصراع الفكري في البلاد المستعمرة دار الفكر ص 121

وفي هذا يقول " بن نبي" : << و لا يخفى ما للاستعمار من الحضور في كل مداولة مثل مؤتمر باندونج أو مؤتمر القاهرة , حضورا خفيا أو ظاهرا تصل عن طريقه الإيحاءات المناسبة لتطبيق القواعد الخاصة بكيمياء و برياضة الأفكار . فتطبق أحيانا في صورة " المزلقة" و أحيانا في صورة " الاستبدال " و أخرى في صورة " البتر" >> (1)

ولاشك أن هذا الخطر قد داهم كل المؤتمرات وحتى تتفادى ذلك ويكسب أي مؤتمر دولي كثيرا مما نصبو إليه علينا بعملية نقد للتقرير النهائي أو بالا حرى التقرير في صيغته النهائية حتى لا تترك للاستعمار ذريعة ومنفذا يبلغ منها إلى تعقيم تلك القرارات لان ظروف الصراع الفكري في أي بلد فيه نفوذ خفي أو ظاهر للاستعمار أكثر غرابة مما تتصورها عادة لاحظ مثلا: لقد إستعمل الاستعمار طريقة الاستبداد حينما حاول إدماج الشعب الجزائري مع الشعب الفرنسي في الجرائر واعتبار الجزائر مستعمرة فرنسية وبذلك بدل فكرة الاستقلال وقاومها محاولا القضاء عليها بفكرة الإدماج كما إستعمل طريقة " البتر " بشكل جلي في أحداث الثامن ماي 1945 حيث نقظت فرنسا وعودها بعدا لحرب العالمية الثانية وأخيرا طريقة " المزلقة " نلاحظها في أيامنا هذه في المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية ابتداءا من " أوسلو" إلى يومنا هذا دون نتائج عملية على الأرض جديرة بالذكر . كما يمكننا ملاحظة ذلك في مؤتمرات القمة للدول العربية حول العديد من القضايا المصيرية ابتداءا بأمهات القضايا , فلسطين , العراق , السودان , وأخيرا لبنان بعد مقتل الحريري . إذ تكشف و بشكل جلي عن تفاصيل الصراع الفكري لان الاستعمار يسدل دائما الظلام على عملياته في هذا الميدان حتى يبقى مسيطرا على الموقف و إذا ما تم اكتشاف حقيقته و جوهره فسوف يبقى في إمكانه أن يسلم بهذا التفضيل للخصم و يدخل الباقي في الظلام كما تسلم الحية بجزء من ذيلها و تدخل جحرها لتنجو بذاتها.

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 122

إذن الإنسان ليس مجرد جسد يأكل و يشرب و يتمتع كما تفعل الأنعام , فالجسد ليس إلا غلافا من الطين لكائن علوي يشير إليه قوله تعالى في خلق آدم :<< فإذا ما سويته و نفخت فيه من روحي >> *

و هذه الروح العلوية هي الشيء الذي ميز الإنسان و جعله أهلا للتكريم و التفضيل

و الخلافة و لعل ما قدمه " مالك بن نبي " من تحليل للنفس البشرية و الذي تعرضنا له سابقا هو الذي يهيئ المناخ الصالح و التربة الخصبة لكي تغير مجتمعها و أمتها بتغيير أفرادها . هذا الإنسان هو حامل المشروع النهضوي على عاتقه و صون للأمانة. وبهذا المعنى يصبح هذا الإنسان مع غيره من أفراد مجتمعه: مجموع الكائنات المعقدة التي تغيرت أوضاعها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية لتنتج حضارة فالإنسان في نشأته يوجد على شكله الطبيعي أي تكون مجموعة من الصفات البيولوجية هي التي تصنع سمات شخصيته أكانت جسما نية كالطول والقصر والسمنة ...الخ أو الاستعدادات النفسية من ذكاء وذاكرة ومخيلة ...الخ

وعلى هذا النحو فإن الحياة الطبيعية في عالم الإنسان لا تؤهله إلا لتلبية حاجياته البيولوجية ولكي يغير لا يجب أن يبقى فرد بل عليه بان يتحول إلى شخص حتى يقوم بعملية التغيير وشحذ الملكات فيه لتحقيق مختلف غاياته.

ولن يتأتى ذلك إلا عندما يغير:

أولا:

الجانب الذاتي فيه من حالة " الطين" إلى حالة " العقل" حينئذ يمكنه أن يغير الواقع المحيط به .

ثانيا: كما عليه أن يكون هو شخصيا أي هذا الإنسان قد اقتنع بالفكرة الموجهة لمناهجه في الحياة.

ثالثا:

أن يقنع الآخرين بهذه الفكرة .

رابعا:

أن يتمكن هذا الإنسان من فهم نفسه وفهم الواقع المحيط به .

إذن على الفرد والمجتمع أن يعملا في نفس الاتجاه , بمعنى أن الفرد يخضع تارة للآلة الاجتماعية , كما أن المجتمع يخضع أيضا للفعل المؤثر للفرد وكأن العلاقة بينهما تكاملية فالمجتمع يتولى تشكيل الفرد والفرد يساهم في خلق هذا التشكيل نفسه .

لكن يجب أن لا ننسى أنه من خلال التبادل بين العلاقة الفردية والاجتماعية تدخل فيه قوى أخرى تساهم في تمتين العلاقات بين الفرد والمجتمع . هذه القوى هي تلك القوى الروحية (الدين) الذي يعمل على توثيق تلك الصلات بين الفرد والمجتمع , والعكس حين يمزق النسيج الاجتماعي .

ولعل استقراء التاريخ الإسلامي يثبت ذلك فعزل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لخالد ابن الوليد رضي الله عنه من قيادة الجيش الإسلامي وتعيين مكانه عبيد ابن الجراح رضي الله عنه لم تكن إلا لتزيد خالد ابن الوليد أيمانا بأنه لم يكن يدافع في سبيل عمر , بل هو جندي من جنود الله : الشيء الذي تركه " خالد" يزيد من فعاليته وإرادته في الدفاع عن الأراضي الإسلامية وتحقيق النصر تلوى النصر في الفتوحات الإسلامية . وهذا العمل الذي قام به خالد يلاحظ عليه " بن نبي" مايلي :

- أن خالد لم يكن يعمل ذلك , إلا لأنه كان يرى شخصه متحققا في الجنة ولأنها من باب الجهاد لم تكن هذه الصورة سوى محققة للآية التالية :<< إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص>>*وحسب "بن نبي" فان التحول الذي يطرأ على مجموع العلاقات الاجتماعية لا يتم إلا عن طريق التربية , وعن طريق ثقافة المجتمع . تلك الثقافة التي تراعى عناصرها أحسن رعاية في عملية التغيير .

إذن لا يمكن تصور عمل تغييري وبالتالي صناعة التاريخ وتشييد صرح حضارة إلا بالاتزان بين الطين والعقل ومختلف الظروف المحيطة بالإنسان من عقائدية و ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية .

التغيير الاجتماعى :

* تمهيد ((عرض تاريخي))
* طرح المشكلة
* أهمية الفكرة الروحية في توطيد شبكة ا لعلاقات الاجتماعية
* استقراء التاريخ :

أ- مرحلة ما قبل الحضارة

ب- مرحلة ما بعد الحضارة

* مراحل التغيير الاجتماعي لبناء الحضارة:

أ- مرحلة الروح

ب- مرحلة العقل

ج- مرحلة الغريزة

*التطابق بين القول والفعل للفرد والدولة ((الفرد للمجموع- المجموع للفرد))

الاستنتـــــــاج :

حدوث التغيير الاجتماعي يتوقف على قوة أو ضعف منظومة شبكة العلاقات الاجتماعية.

لقد إتضح لنا فيما سبق " التغيير النفساني " أن " مالك بن نبي " أكد على ضرورة الربط بين صلاح المجتمع من خلال صلاح أفراده و صلاح المجتمع لازم لصلاح الفرد, لزوم التربة الخصبة لنبات البذرة .

و الإنسان في نظر" مالك بن نبي " ليس منعزلا في خلوة , أو راهبا في صومعة كما يقال , بل يتصوره دائما في جماعة كما قال الرسول (ص) : <<ما من ثلاثة في قرية و لا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا إستحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة, فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية>> *

(رواه أبو داود و النسائي)

- وفلسفة " مالك بن نبي " الاجتماعية و أفكاره و تصوراته تصب في هذا الاتجاه فهو يفرض على كل فرد خدمة يومية يؤديها خدمة لمجتمعه و لوكانت إماطة الأذى عن الطريق أو كلمة طيبة , أو تبسم الإنسان في وجه أخيه .

- كما إهتم بالمرأة و الأسرة و تربية الأطفال و رعاية الشباب و سائر الشرائح

و مختلف النواحي الاجتماعية من خلال إهتمامه بنسيج و منظومة شبكة العلاقات الاجتماعية ,

هذه الأخيرة التي تعمل على إزدهار المجتمع و تطوره إذا كانت قوية

و متماسكة أو على ضعفه و انحطاطه إذا كانت ممزقة تعاني من الانفصال لأن :

((الفرد للمجموع – و المجموع للفرد))

و لكن قبل توضيح ذلك أستسمحكم بهذا التمهيد أو هذه المقدمة , فإذا كان الماء عنصر الحياة كما يتبنى البعض , فإن عنصر الإنسان هو مصدر كل تغيير إجتماعي بل هو التغيير الاجتماعي نفسه .

لذا كان الإنسان هو محور عملية التغيير الاجتماعي لأن المجتمع في ماهيته عبارة عن مجموعة أو جماعات من الأفراد تربط بينهم جملة من الخصائص الأخلاقية والمادية وبالتالي راعى المفكر الجزائري " بن نبي " عنصر الإنسان ومنحه

"أهمية بالغة " .

---

* حديث شريف رواه أبو داود و النسائي

لكن البعض خاصة القادة تجاهلوا ذلك مركزين على المؤسسات وأجهزة الدولة مما تمخض وترتب عن ذلك مشكلة يمكن صياغتها على النحو التالي :

هل نحن في حاجة إلى مؤسسات ,أم نحن في حاجة إلى رجال؟

هذا الرجل الذي يؤثر في تركيب التاريخ ,رجال يمشون ويغيرون مجرى التاريخ وبالتالي لا غرو إذا ما إستقرانا التاريخ المعاصر لنجد كيف أن الكثير من القضايا كقضية كشمير أو القبارصة الأتراك المسلمين ,أو الحرب التي قامت بين الهند وباكستان سنة 1965 وقف العرب والسلمون إتجاهها مواقف مخذلة إذ دعوا إلى وقف القتال لا إلى مساندة المسلمين في العالم .

و حتى في أيامنا هذه نجد الكثير من الحكومات تقيم علاقات دبلوماسية و اقتصادية ضاربة عرض الحائط مشاعر و أخوة العروبة و الإسلام , بل و لعل الكثير من الدول العربية تفضل ذلك علانيا أو سريا ومرد ذلك أن العرب ردموا منابع الطاقة التي يتحركون بها في الداخل والخارج فاستبيحت بيضتهم ولطمهم الحر والعبد ,وليتهم انتحروا بشرف ,وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل تقاتلوا فيما بينهم واستحضر هنا كلام الشيخ محمد الغزالي وفيه يقول :

<<فعندما كانت جماعة أهل الشيعة مدعومة بجيش لبنان الماروني تهاجم المخيمات الفلسطينية التعيسة سمعت المذيع يقول :أن لجنة ذهبت لوقف إراقة وسفك الدماء بين الأشقاء !!! فقلت ماذا تقول أيها المذيع ؟ أشقاء ! (1)

---

(1) محمد الغزالي : الحق المر- دار الشهاب - باتنة . الجزائر ص 8

إن النسب الذي يجمع هؤلاء وأولئك قد نقص بل وزال وأستبعد من الصراع . لذا كان " بن نبي" يرى أن قوة الأمة أو ضعفها يتوقف عما يسميه هو بشبكة العلاقات
الاجتماعية بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث إعتبر ها منطلق لأي تغيير إجتماعي وفي هذا يقول "مالك بن نبي":<< فإن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده >>(1)

أي أن المجتمع ليس كل شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي كما ذهب إلى ذلك
الأنثربولوجيون ولكن هي التي تحدث ثورة جذرية لتغيير المجتمع في جميع مجالات حياته إبتداءا بشبكة علاقاته الاجتماعية وانتهاءا ببناء صرح حضارته . وهذا التغيير في شبكة العلاقات الاجتماعية هو الذي يغير الفرد من كونه
" فرداUndividu " إلى أن يصبح " شخصاPersonne " وذلك بتغيير صفاته المرتبطة بالنوع إلى نزعات إجتماعية مرتبطة بالمجتمع , أي نقله من مستواه الطبيعي إلى المستوى الاجتماعي بإعتبار الإنسان كما قال "أرسطو" مدني بطبعه(2) ولنا في قصة حي إبن يقضان لإبن طفيل خير دليل على ذلك إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان منفردا معزولا عن غيره.

لقد تفشت في العهد الجاهلي ظاهرة أو عادة وأد البنات إذ نجد القران الكريم شجبها في موضعين :

<< ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم >>*

<< ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم>>*

ومن خلال النصين نستشف أن سبب تفشي ظاهرة الوأد كانت بدافع أسباب اقتصادية , وحتى الواقعة التي تمت في عهد عمر حينما قدم إليه ذلك الذي قام بعملية السرقة ولم يقم له حدا , لأنه لم يتمسك بالنص حرفيا وراعي الظروف الاجتماعية .

---

(1) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 25

(2) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص28

* الأنعام : الآية 150

* الإسراء : الآية 30

وعليه هل الظروف الاجتماعية هي التي توجد القانون الأخلاقي أم هو الذي يوجد الظاهرة الاجتماعية ؟

لذا لاغرو ولا عجبا إذا ما وجدنا الفقير فقرا مدقعا يفكر في السرقة لأن لها ما يبررها وهذا التحليل يجاري المفهوم الماركسي الذي يبني علاقاته الاجتماعية على العامل الاقتصادي فإذا قال ماركسي مثلا : إن من الممكن تغيير وتطوير المجتمع بالتأثير في ظروفه الاقتصادية كانت هذه العبارة كاملة في عقله صادقة في تجربته اليومية .

لكن حينما هب المجتمع الإسلامي فجأة لينتج حضارة عملاقة بدأ بتغيير شبكة علاقاته الاجتماعية إبتداءا بالميثاق الذي ربط الأنصار بالمهاجرين وإجتماع المسلمين في المسجد في صلاة الجمعة عنوان ميلاده وعند المسيحيين في إجتماعات الأحد ...الخ .

إذن لكل مجتمع نمط أو منهج معين من شبكة العلاقات الاجتماعية المبنية على أساس معين هذا الأساس يستمد حيويته وطاقته وفعاليته إما من فكرة روحية تمثل جانبه الديني أو فكرة عقلية تمثل جانبه الإيديولوجي أو المفهومي . وقد يغير المجتمع أوضاعه وتصل شبكة علاقاته إلى الرقي والتطور حينما تتماسك وهو ما لمح إليه حديث الرسول (ص) : <<مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى >> * (رواه مسلم)

وقوله أيضا : << المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا >> * (رواه البخاري)

وبالمقابل إذا بلغت شبكة العلاقات الاجتماعية مستوى من الانفصال فيها ويحل التمزق في الجسد الاجتماعي ويعيش الفراغ ويصل إلى درجة من اللاوعي ويغيب عن التاريخ .

---

* حديث رواه مسلم في صحيحه

* حديث رواه البخاري في صحيحه

وهذا كذلك ما لمح إليه حديث الرسول (ص) : فعن ثوبان رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله (ص) قال:

<< يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها, فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل , ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت >> * (رواه الشيخان)

لقد أحدث الإسلام ثورة جذرية في منظومة العلاقات الاجتماعية بل و غير منها الكثير رأسا على عقب , و جعل الرسول (ص) هذه الأخوة عقدا نافذا , لا لفظا فارغا , و عملا يرتبط بالدماء و الأموال , لا تحية تثرثر بها الألسنة و لا يقوم لها أثر , إذ حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين . و لذلك أراد مالك بن نبي دفع منظومة العلاقات الاجتماعية من جديد بعدما أصابها من جمود وتغييرات كما ذكرنا آنفا عبر تاريخها و استخلص أن كل تقدم للحضارة أو انحطاطها إنما يتوقف بادئ ذي بدء على منظومة و طبيعة العلاقات الاجتماعية و في هذا يقول" مالك بن نبي" :

<< فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع , و إنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة . و هذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة إذ هو يدين لها ما يملك من أفكار و أشياء >> (1)

و على هذا فإن عمل المجتمع في التاريخ يتوقف أساسا و بالدرجة الأولى على شبكة العلاقات الاجتماعية . ويعني بذلك أن هناك علاقة تكاملية بين العناصر الثلاثة المكونة والمنتجة للحضارة والتي تتمثل على النحو التالي :

حضارة = إنسان + تراب + زمن

---

* حديث شريف رواه الشيخان (بخاري و مسلم)

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 26

كما يحدد "أي التركيب بين العناصر السالفة الذكر" في الوقت نفسه طبيعة العلاقات الاجتماعية لحظة نشوئها .

ويركز " بن نبي " في مسالة التغيير ليس على السلطة ولكن على العمل الاجتماعي الذي تقوم به الجمعيات الأهلية والمؤسسات الاقتصادية , وهيئات التخطيط الاجتماعي والعمل الثقافي بشرط أن يتحرر الفرد من هيمنة الغريزة ويخضع لهيمنة الروح والأخلاق لأن أمور وشؤون المجتمع تجري طبقا لمقاييس وقواعد وهي في حقيقتها قيم خلقية تنظم نشاطه في سبيل غايته. وهذا ما عبر عنه

" بن نبي " بقوله : << وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه >> (1) .

ويعني بذلك أن تطور الحضارة أو انحطاطها إنما يتوقف على منظومة شبكة العلاقات الاجتماعية ويميز"بن نبي "ما بين مرحلتين :

ا- مرحلة ما قبل الحضارة

ب- مرحلة ما بعد الحضارة

فالوضع الأول هو وضع الإنسان الفطري أو الطبيعي وهو على إستعداد للتغيير الاجتماعي كحال العرب في الجاهلية. والمقصود بالجاهلية تلك الفترة التي كان الجهل فيها وثنية لأ نه لا يغرس أفكارا , بل ينصب أصناما تعبد بجزيرة العرب مثلا إذ لم يكن قبل نزول القران إلا شعب بدوي يعيش في صحراء . ولكن إبتداءا من " غار حراء " وبنزول الوحي بدأت المرحلة الرئيسية في بزوغ فجر جديد , فجر تشييد صرح حضارة إسلامية بدأت تتوسع و تنتشر فوق سطح المعمورة.

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 49

أما الوضع الثاني فصار الإنسان غير قابل للتغيير إلا إذا تغير هو نفسه وفقا للمشروع الذي يحمله ,والذي أثبت فعاليته ونجاعته من قبل وهو ما نستشفه في حديث الرسول صلعم ((لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها))

إن تغير المجتمع وتطوره أو إنحطاطه وتدهوره له سنن كونية والعيب ليس في السقوط كما يقال ولكن التمادي في السقوط . إن كل مجتمع ومنذ لحظة ميلاد يقطع أشواطا معينة ويمر بمراحل محددة ابتداءا بمرحلة الروح والعقل وأخيرا مرحلة الغريزة التي نعمل على تحليلهاكمايلي:

مرحلة الروح:

لعل ما أستهل به حديثي وأنا أحلل هذا العنصر كتاب قرأته للشيخ" محمد الغزالي" بعنوان حصاد الغرور وفيه يستهل حديثه يقول الشاعر :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا

إن الحياة عقيدة وجهاد .

وهذا يعني أن لفكرة الروح تأثير بالغ الأهمية على نفسية الإنسان فالإنسان إنسان بنفسه لا بجسده اذكر أنني كنت أتحدث مع مقاتل شهد معركة الصبحة في الخمسينيات و الحديث دائما للشيخ العلامة" محمد الغزالي" فقال لي : والله لقد قاتلنا بشدة وعزم . قلت له : لكن اليهود إستولوا على الموقع فقال: إننا والله كبد ناهم خسائر جسيمة غير أننا ماكنا نحصد منهم صفا بمدافعنا حتى ينبت مكانه صف آخر وهو يرتل الأناشيد الدينية وهززت رأسي عجبا وأنا اسمع هذا الكلام ثم تساءلت بيني وبين نفسي :

كم نشيدا دينيا يحفظه شبابنا ؟

و كم آية قرآنية تغري بالاستشهاد , أو حكمة نبوية توحي بالثبات

إن الروح بالنسبة لنا المسلمون ليست ضمانا للآخرة فحسب إنها أضحت سياج دنيانا و كنه بقائنا منذ إنطلاق شعاع غار حراء >> (1)

---

(1) محمد الغزالي: حصاد الغرور دار الشهاب للطباعة و النشر باتنة الجزائر ص19- 20.

و بوسعنا أن نتخيل ماكان يمكن أن يحدث في مجتمع مريض لو أن خليفة من طراز عمر بن الخطاب أراد أن يعزل رجلا كخالد بن الوليد من قيادة جيش الشام .

إن محاولة كهذه كفيلة بزلزلة العالم الإسلامي و لكن فكرة الأنا الإسلامية كانت سوية و قوية و هذا دليل على أن علاقاتهما كانت سوية منزهة و أن نسيجها الاجتماعي متماسك قوي.

مرحلة العقل : و هي تجسيد الروح في العقل حسب" بن نبي" و لكن ليست هي الروح ذاتها بل هي تنازل الروح إلى عالم العقل , و قوة العقل و سلامته مستمدة من قوة الروح و الإيمان و هي شبيهة بدافعة ارخميدس في مقاومتها للجاذبية , ذلك أن العقل يتأرجح بين تلك الثنائية الجسم (الميول و الغرائز و الأهواء) و النفس (العقل و الفكر و الأخلاق) و إذا ما إستقرأنا التاريخ نجد كيف أن مرحلة العقل تجسدت في العهد العباسي أو ما يسمى بالعصر الذهبي بمرحلتيه الأولى و الثانية .كما خاطب القران الكريم الإنسان في العديد من المواضع القرآنية في قوله تعالى :

أفلا تعقلون , أفلا تبصرون , أفلا تنظرون و قد قيل << لا دين لمن لاعقل له>>

أو << أفضل الناس , أعقل الناس >>

مرحلة الغريزة : و فيها يتحلل المجتمع أولا من علاقاته الاجتماعية كأن يصبح لا يحمل العنصر المؤلف لها و الذي هو الطاقة الحيوية و تتجسد مرحلة الغريزة في نظر " مالك بن نبي" :<< إذا ما فارق دعاة الحضارة سبيلهم التي يسلكونها لآداء نشاطهم المشترك. و اتبعوا سبلا و طرائق متخالفة, تجعل النشاط مستحيلا: فسبل تنسل إلى حضيرة التصوف, وأخرى تنحدر إلى عالم العجائب الذي هبت منه ريح ألف ليلة وليلة ,وثالثة تختار طريق الرقص والغناء بدعوى أنها تحضر >> (1)

وهذا يعني أن المجتمع في مرحلة الغريزة من الدورة الحضارية تصبح فيه الزخارف والعناية بالمنظر على حساب المخبر .

---

(1) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص91

وتتغير فيه القيم والمفاهيم , فالرذيلة تصبح فضيلة , والملتزم والمتمسك بروحه وقيمه يصبح متخلفا رجعيا , والإباحي المتبرج يصبح تقدميا ...الخ

وقد سمى "مالك بن نبي " هذه المرحلة من الطور الحضاري بمرحلة ما بعد الحضارة.

ولتفادي إنفصام شخصية المسلم وحتى لا يتزعزع البناء الإسلامي ويبقى كالبنيان المرصوص حولت التربية الإسلامية طاقته الحيوية الغريزية إلى طاقة اجتماعية خاضعة لمراقبة الروح والعقل. وفي هذا يقول" مالك بن نبي" :

<< إن الفكرة الدينية تحدث تغييرا حتى في سمة الفرد ومظاهره حيث تغير من نفسه وبذلك يكون لمناهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد أي أن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة كأنها تتمثل في وجه جديد >>(1)

وهذا يعني أنه كلما كانت الفكرة الروحية (الدينية) واضحة بقدر ما تحدثه من تغييرات على المستوى السوسيولوجي . أما ما يفعله البعض حينما يستوردون مختلف الطرق البيداغوجية والمناهج التعليمية من هنا هناك وتطبيقها على فلذات

أكبادنا ورجال مستقبل أمتنا كالمدرسة الأساسية التي طبقت في الجزائر أكثر من (15) سنة بدعوى أنها سبيل لإحداث تغيير الاجتماعي إلا أن مصيرها ونتائجها معروفة .

وحتى في المجال السياسي إستورد بعض الحكام والقادة في الوطن العربي والإسلام أنظمة متعددة فانحازت جماعة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب . ظانة ومعتقدة بل ومؤمنة بأنها حل سحري بلغة" جون بول سارتر" , ولكن كل هذه المحاولات باءت بالإخفاق والفشل الذريع .

---

(1) مالك بن نبي : المصدر نفسه ص 74 .

وليس أوهن ولا أضعف من أن نرفض الاستنارة بتجارب الآخرين والإفادة من جهودهم لأن الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها فهو أحق بها , ولكن بشرط أن نرد الحل المستعار إلى أصول البلد المستعمرة, وفي هذا يقول بن نبي :

<< ينبغي أن نهيئ في بلادنا المحيط اللازم لتطبيق ما نتصور من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية>> **(1)** . ويعني بذلك أن عملية تغيير مجتمعنا والمجتمعات الإسلامية تتوقف على طبيعته وروحه وهذا ليس في المجال التربوي فقط ولكن في سائر مجالات الحياة .

ولكن حينما أصبح المسلمون مسلمين بشهادة الميلاد نلاحظ ذلك الانفصام في شخصيتهم ,وصار المسلم لا يعمل وفقا للقاعدة التي تقول : << الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل>> أي وقع له انفصام بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي إذ كثيرا ما رأينا في جوانب المسجد أحد المصلين ذائبا في دموعه , بل لقد نرى الإمام نفسه وقد خنقته شهقاته وانفعالاته ومع ذلك كما يقول " بن نبي " :

<< فإذا ما قضى هذا المستمع صلاته بقيت الحقيقة التي زلزلت كيانه في المسجد ولم تتبعه إلى الشارع >> (2)

وأتذكر في هذا المقام قول الشاعر الجزائري " سليمان جوادي" :

القدس لنا   القدس لهم

القول لنا   الفعل لهم

وهو بذلك يعبر عن ذلك الانفصام بين الجانب الروحي والجانب الاجتماعي وهذا ما أشار إليه "مالك بن نبي " في قوله : << يجد المسلم نفسه في محيط المسجد لأن المسجد هو الذي ينشىء بالنسبة لضميره الوسط الأولى الذي تكون فيه فهو يجد

" شخصه " ولكنه على عتبة المسجد يفقد صلته بهذا الوسط الاولي , ويجد نفسه في نطاق الظروف الاجتماعية التي تمحو " شخصه " وتبعث فيه "الفرد الخام " >> **(3).**

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 97

(2) مالك بن نبي : الصدر نفسه ص98

(3) مالك بن نبي : المصدر نفسه ص 99

وهو بذلك يقر بضرورة وجود صلة بين ماهو روحي واجتماعي بحيث تتماثل في سلوك المسلم بين المسجد والشارع ولنا في المثال التالي دليلا قاطعا على ذلك :

عندما كان النبي (ص) مشغولا في المدينة بالمطالب المادية للدولة الإسلامية الفتية من اجل مواجهة ضرورات الحرب التي ستبدأ بمعركة بدر حيث كان صحابته يقدمون عن طيب خاطر جزءا من أموالهم , ويعقب سيد بن عبادة على عمله بتلك الكلمة المعبرة : << يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت , وما أخذته منها أحب إلينا مما تركت >>(1)

وهذا المثال يوضح كيف أن الطاقة الحيوية في غريزة التملك المطبوعة في الإنسان تتحول إلى طاقة محكومة منظمة موجهة نحو المهام الاجتماعية بفضل الصيحة الروحية التي تتولى توجيه جميع الطاقات الكامنة في الإنسان نحو تحقيق غاياتها , وفي هذا يقول " مالك بن نبي " :<< كذلك كان المجتمع الإسلامي يحكمه هذا التغير ذاته , إذا كان شأنه شأن بلال لا يتحدث بلغة اللحم والدم , كما أن صوت العقل كان لا يزال صامتا في المجتمع الوليد. فكل لغة هذا العصر كانت روحية المنطق , إذهي بنت الروح أولا وقبل كل شيء >> (2)

---

(1) مالك بن نبي : المصدر نفسه ص100

(2) مالك بن نبي : المصدر نفسه ص 102

إن مشكلتنا هي هذا الورم الخبيث الذي إفتك بالنسيج الاجتماعي في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و الثقافية , و عليه فنحن بحاجة ماسة إلى إعادة بناء شخصية المسلم الذي يقدم واجباته على حقوقه , و الصالح العام على الخاص طبقا لقوله(ص): << لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه >>

و بذلك يصبح قادرا على التغيير و أكثر فعالية في تغيير مجرى تاريخه للمبدأ القائل:

<< الفرد للمجموع – المجموع للفرد >>

و هذا ما يعبر عن شبكة العلاقات الإجتماعية في أرقي معانيها وفي أقصى فاعليته.

أما اليوم وفي ظل العولمة وما حل بشبكة العلاقات الاجتماعية في مجتمعاتنا .لابد لنا من وضع إستراتيجية موضوعية تجعلنا قادرين على مواكبة العصر بما يحتوي عليه من إديولوجيات وثقافات وفلسفات متعددة وأنظمة اقتصادية ... الخ , كل واحدة تريد الهيمنة والسيطرة. فأين موقعنا نحن العرب والمسلمين من كل هذا ؟

وماذا أعددنا لمجتمعاتنا العربية والإسلامية من عدة تغير أوضاعها وتدخل التاريخ المعاصر على غرار ما فعلته اليابان وألمانيا وغيرهما ؟

إن الجواب على هذا السؤال ليس بالأمر الهين كما يعتقد البعض , وإنما يحتاج إلى طاقة وجهد من كل أفراد المجتمع والى إرادة سياسية من طرف القادة حتى يصبح هناك توافق وانسجام بين ما تقوم به الأنظمة وشعوبها ولن يتأت هذا إلا بالأخذ بعين الاعتبار مجموعة من العوامل والشروط نذكر من أهمها ما يلي :

1- مقاومة موجة التخنث والتقليد الأعمى الذي أفقد الشباب شخصيته في زيه ومظهره في سلوكه ومخبره , بحيث يتوارى من المجتمع أولئك المشبوهون من الرجال بالنساء والمشبوهات من النساء بالرجال .

2-العناية بالشباب .لأنهم كما يقال :

عدة الحاضر وذخيرة المستقبل وإعدادهم بدنيا بالرياضة , وروحيا بالعبادة وعلميا بالثقافة , وعسكريا بالخشونة واجتماعيا بالخدمة والمصالح العامة .

3- الاهتمام بالمرأة ومن ثمة الأسرة ثم الطفولة فالأم مدرسة كما قال حافظ إبراهيم إن أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق,هي التي أنجبت العمالقة والعظماء

" ا ذ وراء كل رجل عظيم امرأة"

4- تطهير المجتمع من أسباب الإغراء , ودواعي الإثارة ومقاومة مظاهر التعري والإباحية وتبرج الجاهلية ونشر الأخلاق الفاضلة .

5- القضاء على الرشوة بدراسة أسبابها . وتشد يد الرقابة على الجهاز الإداري ومحاولة إصلاحه وتطهيره من العناصر الفاسدة والاجتهاد في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب وقد جاء في صحيح البخاري عن النبي (ص) :

<< إذا ضيعت الأمانة فأنتظر الساعة , فسئل وكيف إضاعتها؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فأنتظر الساعة .>> *

6- الإرتقاء بشتى أنواع الفن بعيدا عن إثارة الغرائز وتلويث الأفكار أكان ذلك في الكلمة المكتوبة أو المسموعة أو الصورة المرئية خاصة الهوائيات المقعرة ومختلف القنوات الفضائية .

7- غلق دور اللهو التي تشيع الفاحشة و أندية القمار و المخدرات و الحانات و غيرها و لا عبرة بما يقال من جلب السياح و كسب العملات الصعبة فان إثمها أكبر من نفعها و أخلاق المجتمع و الأمة أولى من كسب رخيص كما أنه لدينا من الثروات ما يغنينا عن طريق الشيطان .

هذا هو الاقتراح الذي قدمه " مالك بن نبي " للتغيير الاجتماعي و بناء صرح الحضارة فالفرد للمجموع و المجموع للفرد وكل محاولة لا تأخذ بعين الاعتبار طرفي المعادلة تعتبر عبثا تافها .

- حديث شريف رواه البخاري في صحيحه

التغيـــير الثقـــافي:

* تمهيد

* تعريف ((مالك بن نبي)) للثقافة

* الثقافة بين التراث والتجديد

* العناصر المركبة للثقافة :

أ ـ التوجيه الجمالي

ب- المنطق العملي

ت- التوجيه الأخلاقي

* من أمراض الثقافة :

الحرفية في الثقافة

* إصلاح الثقافة يبدأ بإصلاح المنظومة التربوية

* بين المثقف الحقيقي والمثقف المرتزق في تغيير الظروف الاجتماعية

*الصراع الثقافي في ظل العولمة

* عالم الأفكار عند ((مالك بن نبي)) ومساهمته في التغيير الاجتماعي .

الاستنتـــاج: ثورة ثقافية لتصحيح الكثير من المفاهيم من خلال تأسيس ثقافة عربية إسلامية أصيلة لها القدرة على التكيف مع غيرها من الثقافات العالمية.

التغيير الثقافي :

الثقافة حسب بن نبي هي :

مجموعة من الصفات الخلقية , و القيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه , و الثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته, وهي التي تعكس حضارة معينة يتحرك في نطاقها الإنسان المتحضر . و بالتالي فانه من أوليات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي خاصة في منظومتنا التربوية لنشرها بين طبقات المجتمع و العمل على تطبيقها إذ لا يمكن أن نتصور تاريخا بلا ثقافة , فالشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتما تاريخه .

و عليه فالثقافة هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة , و يحدد قطبيها من عقلية ابن خلدون و روحانية الغزالي أو من عقلية ديكارت و روحانية جان دارك .

و الثقافة عند" بن نبي " ليست هي العلم موضحا ذلك بمثال عن الطبيب الإنجليزي و الراعي الإنجليزي على اختلافهما في الوظيفة والظروف الاجتماعية إلا أنهما ينتميان إلى ثقافة واحدة ولكن فردين لهما نفس الوظيفة والعمل ينتميان إلى مجتمع معين مختلفين ليس لهما نفس الثقافة إذ يختلف سلوكهما . (1)

واختلاف السلوك ناتج عن الثقافة لاعن العلم كما سبق وأن بينا . ويعرف الثقافة بناء على ذلك بقوله بأنها أي الثقافة : << مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته >> (2)

ويعني بذلك أن الثقافة لها دار أمنها وإقامتها ومواطن حضارتها ولعل أول عمل يقوم به مجتمع ما ثقافيا تصفية عاداته و تقاليده و إطاره الخلقي و الاجتماعي و هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع.

---

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ت/ عبد الصبور شاهين ط 1969 دار الفكر بيروت ص124.

(2) مالك بن نبي: المصدر نفسه ص 125

أصبح يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة و هذا بطريقتين :

1- سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي

2- ايجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل

و الإنسان يحدث التغيير الاجتماعي أولا بفكره من خلال تحويل الإنسان كما ذكرنا سابقا من كونه فردا إلى كونه شخصا و من ثمة على هذا الإنسان أن يتمكن من فهم نفسه و من ثمة فهم الواقع المحيط به. إذ لابد أن يكون الإنسان مدركا و واعيا لمختلف الخطوات و المراحل التي يقطعها و يقصد " بن نبي " ذلك الإنسان المثقف الذي يحملها بدرجة ما. أي لا يمكن أن يحدث تغييرا إجتماعيا أي نهضويا إلا بتوجيه ثقافي حقيقي فهو قوة في الأساس و توافق في السير و وحدة في الهدف .

و توجيه الثقافة لا يتوقف عند هذا الحد بل يتجاوز ذلك إلى مختلف الأبعاد الأخرى كالتوجيه الجمالي و التوجيه التقني أو ما يسمى الصناعة وأخيرا التوجيه التربوي والمنطق العملي .

أما العنصر الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية فقد سبق و أن حللناه في التغيير الاجتماعي .

آما العناصر الأخرى المركبة للاجتماع الثقافي فسنعمل على تحليلها الواحدة تلو الأخرى ولنبدأ ب:

<u>1- التوجيه الجمالي:</u> هو عنصر من عناصر التغيير الاجتماعي والثقافي ويستشهد " بن نبي " في ذلك بتاريخ الحضارة الغربية التي طغى فيها الجانب الجمالي على الجانب الأخلاقي أكان هذا الجمال منبثقا عن الجمال الصناعي أو جمالا طبيعيا أي جمال الطبيعة نفسها .

لكن الجمال عندنا في التاريخ الإسلامي يعكس وبصدق صفاء الضمير والنفس البشرية انظر مثلا إلى وجه الجمال في الشاعرية الفياضة لابن الرومي أو لربيعة العدوية .

وفي هذا يقول "بن نبي" : << والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا وأن يتمثل في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا , مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي . إن الجمال هو وجه الوطن في العالم , فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا ونفرض إحترامنا على جيراننا اللذين ندين لهم بنفس الاحترام >> (1) ولكن للأسف الشديد إذ يفتقد مجتمعنا إلى الذوق الجمالي المرتبط بعمق رؤيتنا للعلاقة بين المصلحة العامة والخاصة , فنحن نلاحظ إهتماما بنظافة بيوتنا و ليس نظافة شوارعنا .إن فرض القبعة بدلا من الطربوش على يد "كمال أتاتورك" كان عملا نهضويا لتغيير الأنفس عن طريق تغيير الملابس .صحيح إن الله جميل يحب الجمال , و صحيح أيضا إن إماطة الأذى عن الطريق صدقة و الدال على الخير كفاعله و لكن ليس بالمظاهر الخارجية البراقة كما يفعل البعض المنتسبين للثقافة الإسلامية شعارا بل بالاقتناع بالفكرة داخليا و نفسيا أولا ثم تطبيقها خارجيا و تجسيدها . وهذا ما فعله عمدة موسكو حينما الزم سكانها بان يراعوا نظافة مدينتهم و إلا فهم مهددون بفرض غرامة تبدأ من (25) خمسة و عشرين روبلا إلى مائة روبل على كل من يبصق في الشارع أو يلقي بأعقاب السجائر على الرصيف أو يعلق ملابسه في الشباك المطل على الشارع أو يلصق إعلانات على الحوائط. و أيضا كل من يركب السيارات العامة بملابس العمل المتسخة . و هذا دليل على أن الجمال هو أحد مقومات الثقافة (2)

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 143- 144

(2) مالك بن نبي : المصدر نفسه ص 142 -143

2- المنطق العملي :

لعل من أسباب تبعية الإنسان العربي لغيره من الأجناس الأخرى هو نقص حتى لا أقول إنعدام الجانب التطبيقي و أستحضر هنا كلمة للشيخ " البشير الإبراهيمي " إذ يقول فيها :

<< أتعجب لأمة تأكل مما لا تنتج , و تلبس مما لا تنسج >> و قوله كذلك :

<< لو قلنا للأشياء عودي من حيث أتيت لبقينا حفاة عراة >>

إن أخطر مرض يصيب الأمة هو قعودها إلى الاستكانة و الوهن و ظاهرة الاتكالية و الإيمان الأعمى و المطلق بالقضاء و القدر و يعتبر " بن نبي" ذلك بمثابة مرض خطير يفتك بنفسية المسلم فتبقى لا هي بالميتة و لا هي بالحية و قد جاء في الحديث << إن الله يحب المحترف>>

و قد روى عن عمر بن الخطاب انه قال :

<< إني لأرى الرجل فيعجبني , فإذا سالت عنه فقيل لا حرفة له , سقط من عيني >>.

إن الكثير من الآلات و المصانع الضخمة تتوقف لأسابيع من أجل قطع غيار قد تستورد من أوروبا أو أمريكا أو أسيا و هذا يعني أن التبعية التكنولوجية (العملية) في المجال الصناعي واضحة للعيان , بل و حتى في المجال الزراعي ما زلنا تابعين للغير و لم نفعل ما فعله الماركسيون ذات يوم حينما قرر" ماوتسي تونغ" تطبيق عبارة (لكل فم يدين) حرفيا حينئذ يصبح الاستقلال صوريا ليس إلا. إن الاستقلال و الحرية تقتضي التحرر في جميع مجالات الحياة الاجتماعية و الصناعية

و الزراعية و الثقافية و يمكن تلخيص هذا المنطق العملي في أن معيار الإنسان المنتج ليس فيما يظهره من مهارة تقنية أو علمية بل فيما يقدمه للشعب من خدمة.

إن هناك مراجعة كاملة في سلم القيم تتمثل في السؤال الأتي :

هل قيمة السلاح تفوق قيمة الجندي أم العكس ؟ الجواب طبعا واضح ¸ ذلك أن قيمة الإنسان هذا تفوق قيمته التقنية . و هدفنا من الكلام هو عدم الفصل بينهما كما يعتقد البعض و كما فهموا الثقافة نظريا فقط أي الجانب الروحي لها مهملين الجانب المادي العملي لها لأنه من الخطأ الاهتمام بشق واحد منها فقط.

إلا أن إستقراء مختلف الثقافات العالمية حاليا نجدها قد ربطت الثقافة بشقيها العملي والنظري . وعدم تفضيل أحدهما إلى درجة تفضيل ثقافة العامل المحنك بالتجربة المادية على ثقافة المهندس الذي إستمد ثقافته التقنية من الكتب وهذا الفهم الخاطىء للثقافة والمتمثل في الانصراف الكلي والمطلق إلى العناية بالتقنية وحدها وإهمال الوسائل المعنوية والمادية . هو الذي جعلنا تابعين للغير لأن البعض من مثقفينا خاصة في الجانب الديني يعتقدون بأن ثقافتهم تتمتع بالإكتفاء الذاتي في حين أننا بحاجة ماسة إلى ثقافة علمية و إجتماعية حديثة لذا وقع إنفصام في شخصية المثقف العربي المسلم فنجد احدهم يحمل مفاهيم أمريكية للثقافة الاجتماعية¸ والأخر يحمل طابعا فرنسيا والثالث روسيا والرابع سلفيا دينيا والخامس خرافيا مشعوذا ...الخ

وكل ما يجمعهم من عناصر الثقافة لغة الضاد فقط . وهناك مرض خطير تفشى في أيامنا هذه وهو ما يسميه " بن نبي" بالحرفية في الثقافة وهو عكس الجهل والأمية وهومن الصعوبة بمكان معالجة أصناف الحرفية في التعلم لأنهم إتخذوا من ثقافتهم آلة للعيش وسلما يصعد به إلى البرلمان ¸ وهكذا يصبح العلم نسخة وعملة زائغة غير قابلة للصرف. وعليه لابد من تصفية الجو الثقافي وإزالة كل ما يعترضه من غموض في سبيل تحرر ثقافي بالاعتماد على ما يسمى بالثقافة الاجتماعية المبنية على المنهج العلمي الذي أرسى قواعده ومتن أصوله على مر العصور جميع عباقرة الإنسانية من أرسطو إلى جون ديوي وماركس ولعل إبن خلدون أكثرهم إهتداءا إلى تحليل أوضاعنا وأكثرهم جدوى لما يطمح إليه من غاية أصلية مستقلة بدراسة شؤون مجتمعنا وإذن فما يدعونا إلى دراسة أفكاره والعمل على تطبيقها ليس هو إنتسابه إلى جنسنا والتعصب له بل روحه العلمية الجزئية الواضحة كما تعمل على تصفية تراثنا

كما قال "بن نبي" وعدم الهرولة والإقبال على كل ما هو مستورد من هنا وهناك من تقنيات آلية و قوالب فكرية لأنها لا تنطبق تماما على وقائع حياتنا الاجتماعية أي علينا بمنهج ثقافي عربي أصيل و علمي نابع من روحنا .إن حدوث أي تغيير اجتماعي و بناء نهضة حديثة لا يكون بالثقافة اللفظية و الفخر و الهجاء الجاهلي

والجدل الكلامي , و إنما بثقافة لا تتنكر لروحها و لا تتعصب لها , و لا تنطوي على ذاتها بل بالتحرر و الانفتاح و الاقتباس من الثقافات العالمية خاصة و أن العالم صار قرية صغيرة في أيامنا هذه (العولمة) التقدم الباهر و المذهل لوسائل الاتصال و من ثمة العمل على توجيهها وفق منهاج تربوي مدروس يجعلنا نأخذ مشعل القيادة و الريادة من جديد : و لكن كل هذا لا يعزل المسائل الثقافية عن المسائل السياسية

و الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع العربي المسلم , منذ أن حاول تغيير ظروفه الاجتماعية و في هذا يقول الدكتور : " عبد المجيد مزيان " رحمه الله :

<< و سواء نظرنا إلى المجتمعات الإسلامية بمنظار إجمالي أو جزئي فإننا سنجد نفس التبعية اللاواعية و نفس المفارقات , و نفس التشتيت , سواء أخذت الظواهر في تداخلها و تفاعلها بين السياسة و الثقافة و الاقتصاد و أخذت كل ظاهرة في تفرعها بين ميادين و نشاطات الحياة الاجتماعية في تنوعها و تعددها . إن السياسة حاضرة حضورا طاغيا في كل ظاهرة ثقافية مهما صرح المثقفون بأن السياسة كلما دخلت في شيء أفسدته >> (1)

---

(1) عبد المجيد مزيان : الأصالة مجلة ثقافية شهرية العدد 85 / 86 سبتمبر /أكتوبر 1980ص101

و هذا يعني أنه لا يمكننا أن نقول بأن أي مذهب ثقافي كان سيصبح في يوم من الأيام من الروافد العقائدية ذات الأهداف السياسية السافرة أو المتقنة التستر .

على المسلم المعاصر أو الإنسان الجديد كما يسميه " بن نبي" أن يحدد سبيله الثقافي من خلال تحديد معالم طريقه و بهدف بناء صرح حضارته و هذا من خلال طرح جملة من الأسئلة البالغة الأهمية منها على وجه الخصوص : من أنا ؟ وما رسالتي؟ ومن أين جئت ؟

و إلى أين ذاهب ؟

وهذا ماكان " بن نبي " قد أشار إليه في كتابه : (بين الرشاد والتيه) وخاصة في الفصل الثالث العديد من العناوين , كالثقافة والسياسة و والاديولوجية . أو السياسة والأيديولوجية , حيث أن النشيد يحشد طاقة هذا الشعب وهولا يشكل على سجل أجنبي لأنه نابع من روح هذا الشعب وماهيته وهي التي تضع قاطرته على دروب التاريخ وتترجم فيما بعد ضمن فكر إنساني يكون جزئا من تلك الروح

الجماعية . (1)

إن الكثير من المثقفين اليوم ورجال السياسة في الوطن العربي والعالم الإسلامي ومن بينهم مثقفين جزائريين يجهلون رسالتهم الحضارية فهم دائما في نظرتهم للتغيير الاجتماعي حماسيون عاطفيون يل وحتى مستلبي الشخصية نتيجة لخلفيتهم الثقافية التابعين إليها بقصد أو بغير قصد .وهنا أتذكر ذلك الفرق الذي قدمه لنا زعيم الوجودية الفيلسوف الفرنسي"ج- ب- سارتر" حينما ميز في كتابه الشهير (دفاع عن المثقفين) بين المثقف الحقيقي والمثقف المرتزق . فالمثقف الحقيقي مثلا يقول (لا) مباشرة أي : لا للظلم, أولا للاستغلال والنهب وما إلى ذلك أما المثقف المرتزق فانه يقول (لا ولكن) وشتان بين الاثنين وكأن المثقف المرتزق كما يسميه " سارتر" يمسك العصا من الوسط كما يقال. (2)

---

(1) مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , دار الفكر دمشق ط / 1- 1978 ص97 (بتصرف)

(2) ج- ب- سارتر:دفاع عن المثقفين ت/ جورج طرابيشي دار الآداب بيروت ط/1-1973 ص33-34 (بتصرف)

وهذا ما يعكر ويعطل حركة التغيير الاجتماعي عندنا , أو يغير لها مسارها الحقيقي السليم كما يفعل صنف أخر من المثقفين حينما يرتدي قناعا أخر بعيدا عن ثقافتنا الاجتماعية كالعلمانية أو العولمة حاليا .

ويريدون فرضها على مجتمعاتنا مع العلم أنها ثقافات دخيلة علينا غريبة عن واقعنا محصلة لثقفات أخرى تعبر عن روحها .

أما ثقافتنا الجزائرية العربية الإسلامية فهي ثرية في مختلف المجالات كالفنون والآداب والتقاليد ومصدرا للعبادات والمعاملات بين الناس وهي لا تأبى الاقتباس من الثقافات العالمية الأخرى , فيما لا يتعارض مع خصائصها الذاتية والروحية .

إن الصراع الحالي في العالم صراع أفكار وثقافات وما تعانيه مجتمعاتنا من تبعية إعلامية , علمية , وثقافية كما يرى " بن نبي" لا يعود إلى نقص في الصواريخ أو البنادق , ولكن يعود إلى نقص واعوزاز في الأفكار .

والمجتمعات كما يقول "بن نبي " لا تقاس بما تنتجه من أشياء ولكن بما تنتجه وما تحمله من أفكار.

إن اللغة التي تتكلم بها الثقافات العالمية اليوم تشبه إلى حد بعيد لغة التكتلات الاقتصادية وينبغي على الثقافة العربية الإسلامية أن تند مج وتتكيف معها وهذا بواسطة نخبة من المثقفين تحمل على عاتقها عملية التركيب بين التراث المعبر عن روح مجتمعاتنا الأصيلة و بين الثقافة العالمية و علبه فالهجوم العلني و التآمر الخفي على ثقافتنا العربية الاسلاميةخاصة في أيامنا هذه سيؤدي حتما إلى غليان نفسي ,

و هذا الغليان النفسي لا يظل مكبوتا أبد الدهر , بل لابد أن يتنفس معبرا عن نفسه من جيل التحدي لا جيل التردي .

لقد كرم الله الإنسان بالعقل والقدرة على التعليم , وجعل العلم من مرشحات خلافته في الأرض , ولهذا جاء الإسلام يحث على النظر والتفكير ويحذر من التقليد والجمود حتى جعل التفكير والتعليم فريضتين , وأشاد بالعلم وأهله حتى جعل العلماء ورثة الأنبياء , وجعل طريق العلم طريقا إلى الجنة ولكن أي علم و أي ثقافة نعلمها ونلقنها لأطفالنا ذكورا وإناثا ؟

يجب علينا في بداية الطريق إعادة النظر في مناهج التعليم في كل المراحل وفي شتى المواد , بحيث تقوم بعملية تنقية وتصفية فتقوم مثلا بنزع الأفكار اللادينية والأفكار التبشيرية والمفاهيم الدخيلة على مجتمعنا فهي التي تصنع إطارات ورجال المستقبل وتشكلهم وتوجههم وجهة صحيحة سليمة , بهدف تحقيق غايتهم أو العكس لا قدر الله.

إن سعادة الإنسان أو شقائه تنبع من نفسه وحدها والرجل الذي تربو ثقته بنفسه لا يشل إقدامه على الحياة لان النفس وحدها هي مصدر السلوك والتوجيه حسب ما يغمرها من أفكار ويصبغها من عواطف , ومن هنا كان الإصلاح الفكري هو الدعامة الأولى فإذا لم تصلح الأفكار أظلمت الآفاق وسادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم وفي هذا يقول تعالى معللا هلاك الأمم الفاسدة .

<< كدأب فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم,إن الله قوي شديد العقاب. ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على القوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم >>*

إن كل ما يصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور في فكره فكما أن المرء ينهض على قدميه وينشط وينتج بدافع من أفكاره , كذلك يمرض ويشقى من أفكاره أيضا . إن المجتمعات النامية لا تتميز بقلة المواد أو الوسائل المادية (الأشياء), وإنما بقصور في الأفكار وعدم فعالية إستغلال الثروات المادية المتوفرة لديها وعجزها عن إيجاد غيرها النفط مثلا في الوطن العربي في حين أن اليابان بلد فقير من حيث الثروات الطبيعية , لكنه يملك ثروة عقلية ((فكرية)) . لذا فان أهمية الفكرة ضرورية لأي تغيير إجتماعي و نهوض حضاري .

لكن السؤال المطروح الآن هو:

* أي الأفكار تحدث التغيير و تصنعه ؟ * أهي كل إرث فكري أم هي أفكار جديدة ؟

- هل التمسك و التشبث بفكرة الأصالة هو الذي يغيرنا ؟ أم بالحداثة و الفكر المعاصر؟ أم بالتوفيق بينهما ؟

يرى " مالك بن نبي " في هذه النقطة أن هناك نوعان من الأفكار :

1- أفكار ميتة و أفكار قاتلة 2-أفكار ذات فعالية صادقة

فالأفكار الميتة هي التي ورثناها من عصر ما بعد التحضر و هي أكثر الأفكار قدرة على القتل من الأفكار الأخرى و يعرف "بن نبي" الفكرة الميتة بقوله : << فكرة خذلت أصولها و انحرفت عن نموذجها المثالي و لم يعد لها جذور في محيط ثقافتها الأصلي >> (1) كما يعرف الفكرة القاتلة بقوله :<< فكرة تقدمت شخصيتها و قيمتها الثقافية بعد أن فقدت جذورها التي ظلت في مكانها في عالمنا الثقافي الأصلي >> (2) و لعل الشواهد من خلال استقراء التاريخ يوضح و بشكل جلي كيف أن كل من الفكرة الميتة والفكرة القاتلة لها وجهان :

أ- إما أنها ضارة ب- إما أنها سلبية

إن الصراع مثلا بين علي و معاوية ترتب ما ترتب عنه من مشاكل و جلب ما جلب من ويلات للأجيال اللاحقة في حين أن الفكرة الصحيحة المنطقية للروح الإسلامية تجسدت في أن لا فرق بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى . و عليه فالأفكار المخذولة أكانت ميتة أو قاتلة تنعكس سلبا و تقف عائقا أمام حركة التغيير الاجتماعي و تعمل على الانتقام منه .أما الأفكار القاتلة فتتشخص فيما نراه في شبابنا اليوم حينما يقوم بتقليد الإنسان الغربي , فمسخت و طمست شخصيته و جعلته ينصهر في بوتقة الإنسان الغربي و يعيش الاستيلاب في جميع صوره كما قد يلجا إلى العادات

و التقاليد و التراث بشكل عميق فتفعل هي أيضا فعلتها فتوقف عجلة التغيير الاجتماعي و النهوض الحضاري.و يصاب المرء بالجمود و تكبل العقول و في هذا يقول "مالك بن نبي" : << إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها و إنما يفتح دروبا جديدة , ولا يتحقق ذلك إلا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الأخلاقي وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات البناء في مجتمع يريد إعادة بناء نفسه>>(3)

---

(1) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ت/ محمد عبد العظيم علي القاهرة 1970 ص 209

(2) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 209

(3) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 209

إن الإيمان بصدق الفكرة وصحتها والإيمان بها أو بالأحرى الاقتناع بها يؤهلان الإنسان لكي يغير ذاته ومجتمعه بل وأمته ويصنع مجدها . لكن ما هو المقياس الذي يجعلنا نقول عن هذه الفكرة أنها صحيحة أو خاطئة ؟

هناك معايير تجعلنا نقر بصحة هذه الفكرة أو تلك وهي كالتالي :

إنعكاس هذه الفكرة على حياة المجتمع ومدى أثرها عليه في شتى مجالات حياته وإلا تصبح هذه الفكرة عديمة الفعالية . ففي التاريخ الإسلامي مثلا نجد أن التغييرات الاجتماعية ما كانت لتحدث لولا أن أصبحت الظروف مهيأة في العهد الجاهلي فبزغ النور الإلهي المتمثل في شخصية محمد(ص) بفكرته القرآنية .كما أن الفكرة مربوطة بمحيط مولدها فالماركسية مثلا لم تكن لترى النور لولا انتقال المجتمع الأوروبي من الإقطاعية إلى الرأسمالية أين تفشت الطبقية والاستغلال .

إذا الفكرة تحيا وتفعل فعلتها حينما تساعدها ظروف وعوامل خارجية عن نطاق الإنسان .كما أن الفكرة قد تجد بل وتصطدم بأفكار أخرى فهي ليست وحدها في الميدان وبالتالي إما أن تفرض ذاتها في عقر دارها قبل الغير أو قد تتنكر لأهلها بتنكرهم لها وتهاجر إلى تربة ووسط أخر وهذا ما عرفته مثلا الفكرة المسيحية حينما ظهرت ونزلت في " بيت لحم " ووجدت ثقافات متصارعة فأعلنت الهجرة من موضع مولدها إلى أوروبا .

واعتمادا على ما سبق يرى " بن نبي " إن الفكرة قد تولد مرتين :

- مرة أولى : حيث تجد ظرفا يساعدها على زرع " بذرتها "
- ومرة ثانية : حيث تعلن هجرتها من مكان إلى مكان حتى تتم عملية البذر أيضا . (1)

---

(1) الأخضر شريط : مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي - رسالة لنيل شهادة الماجستير السنة الجامعية 1988-1989 ص95-96-97 بتصرف .

إن نشر الفكر الإسلامي لا يقتضي كما يفعل البعض البكاء على الماضي بل بالعكس أن يتموضع هذا الفكر الإسلامي في حركة المسلم يوميا و في فعاليته في شتى مجالات الحياة .لان واقعه اليومي لا يعكس بالضرورة صدق أو خطا فكرته حتى أن البعض قال :<< الحمد لله الذي عرفت الإسلام قبل أن اعرف المسلمين >>

.إذا الفكر الإسلامي طاهر ونقي وصحيح ولكن الحامل لهذا الفكر شيء آخر وفي هذا يقول " بن نبي " : << قد تكون فكرة صحيحة وليست صالحة كما قد تكون فكرة صحيحة وفقدت صلاحيتها في الطريق >>(1). وهذا ينطبق على الفكرة الماركسية, وحتى على الفكرة الإسلامية فرغم صحتها فقدت صلاحيتها في الطريق. لكن ما علاقة الأفكار بالتغيير الاجتماعي ؟ وما هو الدور الذي تؤديه الفكرة في النهوض بالمجتمع ومن ثمة صناعة مجده وتاريخه ؟ يرى " مالك بن نبي " أن الفكرة لا تكون فعالة إلا بمقدار ما تملكه من فعالية " Efficacité " أي فعالية صاحب هذه الفكرة , بمعنى لا تشق هذه الفكرة أو تلك طريقها في التاريخ إلا بما تحمله من قوة ولنأخذ على سبيل المثال لفظ " إقرأ " في التاريخ الإسلامي فهي لم تكن لتحث على طلب العلم فقط , بل تتجاوز ذلك إلى البحث عن الحقيقة ومعرفة اليقين مصداقا لقوله

تعالى : << وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين >> * إذا الفكرة لها وجهان :

أ- وجه ذاتي , ب- وجه موضوعي فقد تكون الأفكار قوية وصحيحة لكن حاملها فقد شروط حركته وفعاليته وفي هذا يقول أيضا" مالك بن نبي " :<< والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وانشط الحركات وأقوم التوجيهات >> (2)

وصفوة القول أننا خرجنا من حرب طويلة الأمد والحرب في كل مجتمع تخلف هوة ثقافية خطيرة كما أننا ورثنا عادات أخلاقية متضاربة بعضها من أجدادنا في عصور الانحطاط الماضية وبعضها الآخر من أقوام فرضوا علينا حياة لم ننضج بعد لان نحياها .

---

(1) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ت/ عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1983 - ص73

* المدثر : الآية 46-47 .

(2) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 32 .

فكان من جراء ذلك أن نعيش إستلابا ثقافيا في جميع صوره كأن نعيش تناقضا في التفكير والمشاعر والذوق وفي الإدارة والعادات والميول, في البيت وفي الشارع فلا نجد إنسجاما في تفكيرنا ولا عالمنا , الفرد الواحد غير منسجم مع نفسه وغير منسجم مع المدينة التي يعيش فيها إذن علينا بثروة ثقافية تغير الكثير من المفاهيم الفاسدة الباطلة المتفشية , الدخيلة علينا خاصة وأن الصراع الحالي صراع ثقافي بالدرجة الأولى . كما علينا بمنظومتنا الأخلاقية الفكرية وتمييز غثها من سمينها وأصيلها من دخيلها , وصحيحها من سقيمها حتى نضمد ونتكيف مع الثقافات العالمية أما الآن فقد إتضح الصراع الثقافي بين ما يسمى بالعولمة والثقافة المحلية الخاصة بكل مجتمع .

فهل إتصال الثقافات فيما بينها يسيء إلى خصوصيات كل منها ؟

أم يعود عليها بالإيجاب ؟

علينا أن نجند كل ما في وسعنا من وسائل التثقيف حتى نغير ترتيبها الاجتماعي فتصبح صالحة للنمو وألا نخشى الثقافات الأخرى بدعوى الذوبان والاضمحلال .

إن الاختلاف بيننا وبين الأوروبيين ليس مرده إختلاف في الطباع أ و في الاستعداد الفطري فمثلا الطالب العربي عندما يدرس في جامعات أوروبا لا يقل عن زميله الأوروبي فطانة وإجتهادا ونجاحا . إلا أن هذا الطالب الأوروبي ينصرف بعد ذلك للعمل في وسط يساعده على تنمية ثقافته ويلائم الجو الاجتماعي فتثمر وتزدهر . أما الطالب العربي فيعود بثقافته تلك إلى أرض غريبة عنها فيحاول غرسها ولكن سرعان ما تنكمش ويعتريها الذبول , وحتى وإن لم تتم فإنها لا تجد في التربة الاجتماعية ما يساعدها على الإثمار والنمو فتبقى شجرة قزمة تعيش بين الحياة والموت .وهذا يعني أنه يجب علينا :

أولا : استغلال وسائل التثقيف العام حتى تتغير تربتنا الاجتماعية من خلال تغير منظومتنا التربوية ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة خاصة وأن العصر عصر إعلام آلي والتي ينقلها طلابنا ومثقفونا من العالم المتمدن إلى أرضنا الاجتماعية المتخلفة .

ثانيا :

ألا نخشى الثقافات العالمية الأخرى حتى تتلاءم مع منطق الثقافة العالمية .

وأخيرا لماذا لا يخافون من ثقافتنا ونحن نخاف منهم ؟

لقد درسوا ثروتنا الروحية (الكتاب والسنة) وفهموا إبن خلدون وترجموا مقدمته إلى جميع لغات العالم ونحن نخشى من كتب ماركس وفرو يد وغيرهم .

وصفوة القول علينا بأن لا نبقي اختيارين كلاهما شر :

أ- شر تقليد القدماء

ب- شر تقليد المحدثين

بل لا بد من تحديد طريق ثالث ثقافي خاص بنا , طريق وسط يقينا الشرين تدخل به العصر دون إفراط ولا تفريط .(1)

إن وقود الألفية الثالثة يختلف تماما عن وقود الألفية الثانية , وهذا يحتم على العالم المتخلف الانتقال من الديماغوجيا وصناعة السفسطة والكلام إلى البيداغوجيا وصناعة الإنسان , ومن الاستهلاكية إلى الإنتاجية , ومن العبثية إلى الغائية ومن السلبية إلى الايجابية , ومن الكمونية إلى الفاعلية .

وبهذه الآليات , يمكنه الخروج من دائرة الوهم التي وقع وأوقع مواطنيه فيها للدخول إلى الألفية الثالثة بحق , لأن الدخول إليها ممارسة فاعلة , وليست حديثا عابرا يملا فراغ الواهمين .(2)

---

(1) عبد الله شريط : معركة المفاهيم - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط/2 -ص269

(2) أحمد عيساوي : مجلة العربي العدد 500 - جويلية 2000 - ص 34 .

التغـــيير السيـــاســي:

* ضبط مفهوم السياسة

* طرح المشكلة

* ضبط مفهوم السياسة عند ((مالك بن نبي)) ومبادئها

أ - الوسائل الذاتية: الإنسان , التراب , الزمن

ب – استغلال الوسائل الذاتية بشكل عقلاني

بدل الاعتماد على الخارج .

* استقراء التاريخ :

- التجربة اليابانية

- التجربة الألمانية

* شروط التغيير السياسي :

- تعاون عمل الفرد والدولة

- التجانس والتكامل بينهما

* ملامح العولمة في المجال السياسي .

* لا يعترف الغرب إلا بمصالحه :

- الأحادية القطبية

- الهيمنة الأمريكية

* تراجع الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن

العربي و الإسلامي .

الاســتنتـــاج: * التكتل السياسي عربيا وإسلاميا صار مسألة حتمية في ضل العولمة الرقمية الرهيبة .

التغيير السياسي :

قبل الخوض في هذا الجزء من بحثنا لا بد لنا من ضبط وتعريف كلمة " سياسة" فهي مشتقة من الفعل ساس : يسوس : سياسة الدواب قام عليها وأرضاها , القوم دبرهم وتولى أمرهم , استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل أو الآجل فن الحكم وإدارة أعمال الدولة الداخلية والخارجية ومنها السياسية الداخلية والخارجية .

علم يعالج الثروات العامة وفق إدارة الأحكام (1) .

أما في اللغة الانجليزية فكلمة سياسة مشتقة من الكلمة الإغريقية وهي تعني :

الدولة " دولة المدينة " على أساس أن السياسة والدولة علاقتهما وثيقة الصلة بينهما

وحتى لا ندخل في متاهات التحليل اللغوي لكلمة سياسة جدير بنا أن نحدد طبيعة العلاقة بين السياسة والتغيير الاجتماعي من خلال الاستفهام التالي . كيف تساهم السياسة في إحداث التغيير الاجتماعي ؟ وماهو أحسن نظام سياسي أكثر نجاعة وفعالية في تغيير المجتمع وإحداث ثورة نهضوية؟ لايمكن أن نفهم أي عملية تغيير إجتماعي عند" بن نبي"

إلا انطلاقا من السياسة فهي تدرس الظاهرة " أي الظاهرة الاجتماعية " من خلال واقع معاش وبطريقة موضوعية , أي دراسة هذا الواقع دراسة دقيقة , ورسم ملامح مستقبله من خلال رسم خطة سياسية محكمة مدروسة أيضا وبدقة ومن ثمة العمل على تجسيدها على أرض الواقع , وهنا يجدر بنا إلى أن هناك فرق بين السياسة كعلم وضعي وبين الفلسفة السياسية كعلم معياري . لكن إذا كان التغيير الاجتماعي يتوقف على الجانب السياسي, فما هو مفهوم السياسة عند "بن نبي " ؟

يقول " بن نبي " في تعريفه للسياسة :

<< و ماالسياسة في جوهرها إلا مشروع لتنظيم التغييرات المتتابعة في ظروف الإنسان وأوضاع حياته , هذه العلاقة التي تحدد وضع الفرد باعتبار غاية كل سياسة , تعتبر الفرد عاملا لتحقيق تلك الغاية >> (2)

---

(1) المنجد في اللغة و الإعلام: طبعة جديدة و منقحة دار المشرق بيروت ص 362

(2) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ت/ عبد الصبور شاهين دار الفكر ص87

و يعني " بن نبي " بذلك أن الفرد يصبح وسيلة وغاية في نفس الوقت للسياسة و بذلك تهدف السياسة تجاه الفرد إلى تحقيق هدفين:

- تتوجه السياسة للفرد بصفته هو الفاعل الذي يحقق التغييرات المطلوبة و بصفته هو الموضوع المطلوب تغييره.

و التغيير عنده ينطلق من الفرد و ليس من خارجه و يعني بذلك فكرة إستيراد الأنظمة السياسية تارة من الغرب و تارة أخرى من الشرق كما ينعي " بن نبي" سياسات العالم الإسلامي من أنها إتجهت في كفاحها للاستعمار تطالبه بتغيير وضعه النهضوي لكي لا يعود قابلا للاستعمار إذ من الزيغ عن الطريق الأقوم كما يقول أن يطلب الأسير مفتاح سجنه من سجانه .إن الفرد القابل للاستعمار حين ينهض فان عليه أن يستعمل ما تحت يديه من وسائل مهما كانت محدودة ليغير بيئته , و هذه الوسائل تزداد كمالا كلما غير نفسه أكثر ووعى حقيقة إنسانيته و ما تقتضيه من مسؤوليات و هذه السياسة المطلوبة على مبدأين :

- أن نتبع سياسة تتفق ووسائلنا

- أن نوجد بأنفسنا وسائل سياستنا(1)

و هذا يعني أن السياسة تقوم بقطع مرحلتين لتحقيق غايتها هما:

<u>أولا :</u> تستند إلى الوسائل الموجودة في المجتمع و العناصر الثلاثة الأولية للحضارة وهي: الإنسان , و التراب , و الوقت و عدم الاعتماد على الوسائل الأخرى العرضية التي قد لا توجد , و هذه المرحلة حسب " بن نبي " يجب أن تنتهي بتصفية القابلية للاستعمار .

<u>ثانيا :</u> مرحلة تحسين ما لدينا من وسائل لتغيير البيئة بالتدريج و نتيجة هذه المرحلة يجب أن تكون تصفية الاستعمار نفسه.

و في هذا يقول " بن نبي " : << و المهم في هذه السياسة هو المضمون لا الشكل فلا فرق , أي شكل سياسي من أشكال النظم يكون هو السائد أكان جمهوريا أم ملكيا أم إستبداديا مطلقا ! و المضمون , الإيجابي هو وحده المقياس الذي يتيح لنا أن نعرف إذا كانت السياسة المتبعة علم إجتماع مطبقا أم ضربا من الأوهام و الخزعبلات >> (2)

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 90

(2) مالك بن نبي :المصدر السابق نفسه ص 91

أما السياسة و يسميها " بن نبي" باسم احترافي " البوليتيكا " و يقول عنها :

<< هذه السياسة الخرقاء ما زالت تخفي العناصر الحقيقية للمشكلة عن ضمير المسلم فهو يتكلم حيث يلزمه أن يعمل , وهو يلعن الاستعمار حيث عليه أن يلعن القابلية للاستعمار ومع هذا لا يبذل أقل الجهد في سبيل تغيير وضعه تغييرا عمليا , أما أكثر القادة فهم في انتظار ملابسات أعني يتوقعون سماح فرصة .فإذ بك تراهم من حين لآخر يرفعون عقائدهم بالاحتجاج معلقين أملهم على بعض الأساطير المسماة ب "الأمم المتحدة"
أو الضمير العالمي >> (1)

إذن السياسة يجب أن تكون مستندة من جهة إلى دراسة دقيقة للواقع بعيدة عن الارتجال ومن جهة أخرى يجب أن تستند إلى ما يقدمه هذا الواقع من إمكانيات لتغيير مزدوج الذات والموضوع وتوجد علاقة جدلية وطيدة بينهما . ويضرب " بن نبي " مثلا للتخبط في السياسة العربية التي قادت إلى نكبة عام 1948 ثم توالت نكباتنا مع الأسف وكأن شيئا لم يتغير . ومن هنا فان مجتمعنا بحاجة إلى ثورة نهضوية سلمية داخلية تأتي من أسفل لامن أعلى وهي بلا شك إن قامت ستجبر البناء الفوقي على أن يتماثل معها وهذا معنى الحديث الشريف : ((كما تكونوا يولى عليكم))
و في الآية : << إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم >> *

إذن لا ننتظر التغيير من قوة خارجة عنا , شخص , أو دولة , أو وصفة جاهزة وحيدة تحل المشاكل في طرفة عين و كما قال " بن نبي " رحمه الله:

<< لا شك في أن عقائدنا السياسية تدين لتلك القيم الفاسدة للحضارة , تلك العقائد التي تمثلت عندنا اليوم في أسطورة الشيء الوحيد في البيان و تزويق الكلام و هكذا ننتقل من وهم لنتخبط في وهم و لا ندري كم من السنين سوف نقضيها لندرك عجز الأشياء الوحيدة عن حل المشكلة التي هي مشكلة الحضارة أولا و قبل كل شيء >> (2)

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 92

* الرعد : الآية 11

(2) مالك بن نبي :شروط النهضة ت/ عبد الصبور شاهين دار الفكر ص 158

و عليه من الواضح أن السياسة التي تجهل قواعد الاجتماع و أسسه لا تستطيع أن تفعل فعلتها في عملية التنمية و التغيير الاجتماعي لأنها لم تقم على أسس علمية , بل على العاطفة في تدبير شؤونها و تستعين بالكلمات الجوفاء في تأسيس سلطانها و على أفكار تظلل العقول البسيطة .

و في الحقيقة فإننا بعيدون عن منهج السياسة الإسلامية الحالية في العالم الإسلامي المعاصر و قد اتبع البعض منا تارة منهجا يسمى " محافظ " و تارة أخرى يسمى" تقدمي" و كان مصيرها كلها الإخفاق و الفشل في التغيير الاجتماعي مع أن هدفها بالدرجة الاولى تحقيق ذلك لأن :<< السياسة لابد لها أن تكون أخلاقية , جمالية , علمية , كي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ>> (1)

ولنا في التجربة اليابانية أو الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا حين صنعت هاتين الدولتين المعجزة فغيرت من أوضاعها الاجتماعية رأسا على عقب ودخلت التاريخ من بابه الواسع ولعل ما يميز العالم الإسلامي هو غنى ثروته وتركته التاريخية والتي يمكن الاستفادة منها في شقها السياسي . لكن للأسف الشديد هوان العالم الإسلامي يعاني من قصور في المجال السياسي ولذا نجده يميل إلى ما يسميه "ابن خلدون" بالميل إلى البسائط من الأمور والحل السهل الذي نفكر فيه عند إصلاح المجتمع بصورة مباشرة هو إصلاح الحكومة أي معالجة وجع الرأس دون البحث عن الأمراض التي تنهك الجسم الاجتماعي والتي ليست أوجاع الرأس إلا بعض أعراضها ونتائجها .

ومظهر السهل في هذا هو اعتقادنا بان صلاح أفراد الحكم هو الطريق المختصر المباشر الذي لا عناء فيه لعلاج المجتمع بحيث إذا كانت الحكومة و أفرادها صالحون فان المجتمع يكون مجتمعا صالحا راقيا متطورا بصورة آلية وإذا كان العكس في أفراد الدولة , فالعكس أيضا يكون في المجتمع وعلى هذا الأساس يذهب البعض منا إلى تفسير القول المأثور :

" كما تكونوا يولى عليكم" ولا تتفطن إلى أننا بهذا التفسير نعاكس المعنى تماما , فهذا الحديث لم يقل " كما يتولى عليكم تكونون " بل قال" كما تكونون يولى عليكم "

---

(1) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ت/ د. بسام بركة ود. احمد شعبو دار الفكر دمشق ص 135

ثم لا نتفطن إلى أننا بهذا التفسير نعاكس المعنى تماما , فهذا الحديث لم يقل"كما يتولى عليكم تكونون " بل قال"كما تكونون يولى عليكم". بمعنى أن الحكومة هي التي تكون إنعكاسا للمجتمع وليس المجتمع هو الذي يكون إنعكاسا للحكومة لأن الحكومة في الإسلام هي الفرع والمجتمع هو الأصل. وبالتالي لابد من إصلاح المجتمع . الا أن الخطأ الذي وقعت فيه الحكومات أنها إنصرفت إلى العناية بالبلاد وأهملت العناية بالعباد , تزود البلاد بالأجهزة الآلية من مواصلات سلكية ولاسلكية وأبنية فخمة وطرق وآلات دقيقة معتقدين أنها تنتج لنا مجتمعا متحضرا وتعمل على تغيير أوضاعه الاجتماعية ونقله من وضع إلى وضع آخر نهضوي.

ولكن ما حدث هو العكس إذ أصبحنا تابعين للغير في كل شيء حتى المصانع الكبرى والضخمة كالحجار مثلا أو مصانع الاسمنت تتعطل لشهر أو أكثر من اجل قطعة غيار ينتظر وصولها من الخارج .

إن من الواضح أننا نلاحظ مظاهر الفكر السياسي , الأحزاب والصحف والإذاعات والتلفزيون وحتى المجالس النيابية والانتخابات والتعددية ولكن كل هذا نستعمله في السياسة اليومية لا في تكوين الفكر السياسي أو ما يسمى بالمناورات السياسية لا في التربية السياسية للمواطن ليعرف واجباته نحو الدولة وحقوقه منها .

لقد وجد العالم الإسلامي إلى عهد قريب نفسه بين أيديولوجيتين هما : الرأسمالية والاشتراكية وهو الآن في مواجهة الأحادية القطبية (العولمة) بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية .

والإيديولوجية هي ذاك النسق من الأفكار الوظيفية من أجل القيام الجماعي للعمل المشترك في التاريخ. وهو ما رمز إليه بكلمة النشيد. هذه الإيديولوجية أو المفهومية يعرفها "مالك بن نبي" بقوله: << فالمفهومية أو الايديولوجيا هي النشيد الذي يقود عمل الشعب بأسره فهي الصوت الحيادي الذي يضبط إيقاع مجهود الأمة ... كي تتظافر على إنهاض مصيرها ... فهذا النشيد لايمكن ان ينبعث الا من روح الشعب إنها من تقاليده, من تاريخه وعن ما يجعل عمله أو نضاله مقدسا في ناظريه >> (1)

---

(1) مالك بن نبي : آفاق جزائرية - مكتبة النهضة الجزائرية 1964 ص178

وهذا يعني أن المفهومية اتصال وتلاحم للعوالم الثلاث الأفكار والأشياء والأشخاص تحت شبكة العلاقات الاجتماعية والتي تنطلق من الفكرة الروحية التي تثير لها طريقها نحو غايتها وهي تعبر عن روح الشعب وماهيته وأخيرا هي التي تضع قاطرته على دروب التاريخ. ومن هذا المنطلق فان الشيء الذي يجعل الإيديولوجية لشعب ما مقدسة هوما يمكن أن نقدمه كنموذج يشهد عليه التاريخ بأنه الأفضل والأقدر على تغيير المجتمع في مختلف مجالات الحياة .ولنا في التاريخ الإسلامي وفي رجاله عبرة" كطارق بن زياد" و"عقبة بن نافع" وغيرهم .

إن التغيير السياسي لا يفعل فعلته في التغيير الاجتماعي الا وفقا لشروط معينة :

أولا:

الإجماع:

بمعنى تجانس عمل الفرد مع الدولة وإلا حدث العكس فيصبح النظام السياسي ديكتاتوريا, أو ديمقراطيا مزيفا أو...الخ بمعنى يصبح لامفهومية له.

ثانيا:

التعاون بين الدولة والفرد على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي لأن التعاون في جميع المجالات هو المحفز للسياسة المؤثرة في الواقع, وإذا ما حدث العكس كالتشتت و التمزق فان هذا سيؤدي حتما إلى زوال هذا المجتمع أو ذاك وهذا ما يحدث في بعض البلدان العربية بكل أسف كلبنان,والسودان, والعراق...الخ.

ثالثا:

وجود محكمة داخلية (الضمير) شاهدة على أعمال الناس كل في موقعه "الجندي والعامل والفلاح" أي ربط أفراد المجتمع كل في مكان عمله بالذات من جهة وبالموضوع من جهة أخرى."فلينين" على سبيل المثال لم يقدم للجماهير نظرية"ماركس" في كتابه"رأس المال"ولكن قدم لهم فحواه وترجمته على صورة هي في متناول الإدراك الشعبي فأطلق

" لينين" شعاراته المشهورة (السلم للجندي, والخبز للعامل,والأرض للفلاح) , وبذلك أصبحت الجماهير طاقات ثورية واعية لأن السياسة المتبعة كانت تقر بتجانس عمل الفرد والدولة معا في وحدة عضوية لا تنفصم أمام أهوال التاريخ .

وهذا التجانس لايتم الا بعمل ثقافي ثوري قوي يبني المواطن الصالح وكما يقول " بن نبي":<< فصناعة السياسة تعني في آخر المطاف, صناعة الثقافة>>(1)

لقد صدق " لينين" رغم اختلافنا الإيديولوجي معه حينما قال : إن كل الأحزاب الثورية التي أخفقت حتى الآن قد أخفقت لان الغرور قد استولى عليها, ولم تكن تقدر ما يكون قوتها, كما كانت تخشى الحديث عن جوانب الضعف فيها .إذا علينا بنقد ذاتي في المجال السياسي لا نخشى فيه الحديث عن ضعفنا ونتعلم كيف نتغلب عليه .

أما الآن وقد زال المعسكر الشرقي وانتهت الحرب الباردة وصار العالم يسير وفقا للأحادية القطبية وما تقتضيه العولمة فقد إنعكست هذه الأخيرة على العالم العربي والإسلامي وترتب عنها ما ترتب من آثار سياسية يمكن الحديث عنها لاحقا , ولكن قبل ذلك ولكي نفهم ما يعنيه باحث معين بالعولمة ينبغي الرجوع إلى الإطار النظري والمعرفي الذي ينطلق من خلاله هذا الباحث.

فالبعض يرى أن العولمة تشير في جوهرها وحقيقة أمرها إلى "أمركة العالم"أي أن :

العولمة= الأمركة , في حين يرى البعض الأخر أنها تشير إلى الأهمية المتزايدة للسوق العالمي بيد أن صنفا ثالثا يضفي على المفهوم طابعا إيديولوجيا ليبراليا سوقيا (الديمقراطية+السوق)

وبناءا على ما تقدم يمكن النظر إلى مفهوم العولمة باعتباره

مفهوما مركبا يشتمل على أبعاد : إقتصادية, وسياسية, وثقافية , إجتماعية متعددة أثرت على العالم العربي والإسلامي والذي نأتي للحديث عنه الآن بعد ضبط مفهوم العولمة .وإذن : ماهوأثر العولمة على العالم العربي والإسلامي؟

---

(1) مالك بن نبي : بين الرشاد و التيه دار الفكر دمشق 1978ط/1 ص 77

وما مدى قدرة الوطن العربي والإسلامي على التكيف معها ؟ واستطاعته على مواجهتها والتعامل معها؟ إن العالم العربي أو الإسلامي يواجه تحديات جمة طرحتها مرحلة ما بعد الحرب الباردة والليبرالية الجديدة والثورة في ميدان التكنولوجيا والمعلومات, وهذا لا يعني أن العولمة تعني قدرا محتوما على العرب والمسلمين مواجهته دون تمحيص أو نقد , ولا هي في المقابل شر كلها ينبغي أن نولي وجهنا بعيدا عنها .

ملامح العولمة في المجال السياسي:

أ) ظهور الدور الأمريكي في النظام العربي:

طول فترة الأزمة العراقية مارست الولايات المتحدة الأمريكية ضغوطا وتأثيرات عديدة على عدد من دول العالم بما فيها بعض الدول الكبرى , فقد قامت بتأمين تعاون كل من الصين وروسيا لإضفاء الشرعية الدولية, وحصلت على مشاركة بريطانيا وإيطاليا مشاركة فعالة لتنفيذ هدفها وتمكنت حتى من إقناع كما قلنا سابقا البلدان العربية بضرورة مواجهة العراق مع إبعاد إسرائيل عن هذه المواجهة وبذلك خلقت وضعية إستراتيجية جديدة تمثلت في التبعية العربية لها أي للولايات المتحدة الأمريكية وقد كان الرئيس المصري الراحل "محمد أنور السادات" يقول ان حل مشكلة الشرق الأوسط 90 % بيد الولايات المتحدة الأمريكية .

ب- تراجع الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي والإسلامي :

الدعم الغربي المباشر وغير المباشر لأنظمة الحكم العربية وهذا بدافع ثلاثة تبريرات هي كالتالي:

1- المصالح الغربية تقتضي الدفاع عن النظم العربية الموالية للغرب لأنها تضمن مصالحها أي مصالح العالم الغربي الذي يفضل مصلحته قبل الديمقراطية في الوطن العربي .

2- إنتهازية الغرب إزاء الديمقراطية في الوطن العربي و كيفية التعامل معا حيث أن حرب الخليج الثانية أفضت إلى إعادة الإعتبار للنظام .

3- سيطرة مجموعة صغيرة من القوى الكبرى على أجهزة الأمم المتحدة لا يتفق و مبدأ الأغلبية في النظام الديمقراطي و قد عبر رئيس الوزراء الماليزي " مهاتير محمد " عن ذلك أحسن تعبير بقوله:<< إننا جميعا سواء في الأمم المتحدة , بيد ان خمس دول فقط تتمتع بهذه المساواة أكثر من باقي الدول و على صعيد آخر تقوم سبع دول فقط (و يقصد مجموعة الدول الصناعية السبع) بوضع القوانين التي تؤثر في اقتصادات الدول الأخرى إن مجموعة صغيرة من الأمم وضعت على كاهلها مسؤولية تقرير النظام العالمي الجديد>> (1)

ج- استمرار عمليات التسليح و العنف في الوطن العربي:

مواجهة العراق اقتضت تزايدا مطردا في النفقات العسكرية و التي تحتملها دول الخليج و كذلك حركات الإسلام السياسي في كل من مصر و الجزائر كما ان نزعات الحدود قد تدفع إلى الصراع المسلح و من أمثلة هذا النزاع الكويتي,العراقي,القطري,البحريني الجزائري المغربي ...الخ .

إن العولمة ليست للرفض أو القبول , إنها نظام فكري واقتصادي وسياسي لا بد من فهمه , والتعامل معه بما يلزم من أدوات معرفية في المستوى السياسي والاقتصادي

و عليه فان علينا استغلال إمكانياتنا لمواجهة هذه المخاطر والتحديات كما علينا أي :على العالم العربي والإسلامي إدراك حقيقة التكتلات الاقتصادية كظهور الاتحاد الأوروبي واتفاقية التجارة العالمية الحرة لأمريكا الشمالية(NAFTA) والتعاون الاقتصادي لدول آسيا المطلة على المحيط الهادي(APEC) وغيرها من أطر التعاون الاقتصادي , وهذه التكتلات هي مظهر من مظاهر العولمة وبالتالي ما على العرب في مواجهة تحديات العولمة الا إحياء المشروع العربي و تفعيله و الذي يقتضي وضع الركائز التالية :

---

(1) حمدي عبد الرحمن حسن : المستقبل العربي: العولمة و آثارها السياسية في النظام الإقليمي العربي

مركز دراسات الوحدة العربية العدد 258 ص8

- تفعيل نظام الامن الجماعي بإنشاء قوة تدخل عربية تحت مظلة الجامعة العربية تحمل على عاتقها صيانة الامن الإقليمي العربي .

- تفعيل السوق العربية المشتركة في مواجهة الزحف الاقتصادي العالمي من جهة و تحقيق التكامل الاقتصادي العربي .

- التركيز على المعالم المشتركة من العالم العربي و الإسلامي خدمة للمشروع النهضوي البديل (1)

طبقا للآية :<< هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله>> *

لكن قد يقول البعض :

كيف يمكن ان نتحدث عن تكامل اقتصادي في ظل عدم توافق وتجانس اقتصادي ؟

فالكويت مثلا : ما عساها ان تتعامل اقتصاديا مع موريتانيا ؟

نقول لهؤلاء:

أولا: لابد من توفر الإرادة السياسية التي افتقدناهاالى حد الآن.

ثانيا: التنازل لكل دولة عن جزء من سيادتها لهذا التكامل العربي أو الإسلامي ويعتبر هذا في نظرنا المدخل العقلاني الرشيد الذي يجعلنا قادرين على التكيف مع هذه العولمة الرقمية الرهيبة التي لا تعترف بالضعفاء ولا حتى بحقهم في العيش تحت كوكب الشمس وفوق سطح الأرض , ولنحذر من بعض الآراء والدراسات التي تجعل من العولمة كما لو أنزلت من حكيم عليم لان تصديقنا لها يعني الاستسلام فنبقى في المؤخرة ويبقى الغرب في المقدمة .

---

(1) حمدي عبد الرحمان حسن : المرجع السابق نفسه ص 19.

التغيـــير الاقتصـــــادي :

- تمهيد
- طرح المشكلة
- مفهوم الاقتصادي عند ((مالك بن نبي))
- زوال جدار (برلين) وانتهاء الحرب الباردة يقتضي ضرورة وجود نظام اقتصادي إسلامي مستقل بذاته .
- التفاعلية بين العناصر الثلاث : الإنسان , التراب , الزمن .
- ضرورة الربط بين فكرتي : الحقوق والواجبات .
- ضرورة تفعيل مشروع التكامل الاقتصادي العربي .
- مقومات التكامل الاقتصادي العربي .

مفهــوم الاكتفـــاء الذاتـــي :

- ضبط مفهوم الاكتفاء الذاتي .
- مظاهر التبعية وأسبابها :

ا- الأسباب الطبيعية

ب- الأسباب البشرية

الاســـتنتـــاج :

- ضرورة التكامل الاقتصادي و حتميته بين دول العالم العربي و الإسلامي في ضل العولمة .

التغيير الاقتصادي:

إن الموارد والثروات المادية بالنسبة للإنسان مصدرها الوجود الطبيعي بصفة عامة والأرض بصفة خاصة التي تعد أكبر مورد وأعظم منبع للحياة ولما كان الإنسان جزءا من الطبيعة ولا يمكنه الاستقلال والإستغناء عنها مهما كان الأمر فإن حياته متعلقة بها ومرهونة بأشيائها لأنها هي التي تمنحه الحياة والإستمرار في الوجود . إنه لا يستطيع أن يعيش بعيدا عن الكرة الأرضية أو دون ماء وهواء أو دون ضوء وحرارة شمس وما إلى ذلك . هذه الأشياء كلها السالفة الذكر وغيرها والتي لم تذكر هي ما يسمى : بعالم الإقتصاد << والاقتصاد كما يقال عصب الحياة فهو الذي يرفع من شأن المجتمعات والأمم أو يحط منها لذا نجد الكثير من هذه الشعوب والأمم أولت عناية فائقة للمجال الاقتصادي , بل وحتى الإستعمار نفسه وبعد أن أدرك أن أسلوب العصا الغليظة لم يعد صالحا بشكل مطلق في زماننا هذا لإحتلال مواقع في أصقاع الكرة الأرضية غير مظهره بنزع ثيابه الكلاسيكي " الحملات العسكرية" مرتديا ثوب أخر جديدا هو الثوب الاقتصادي مدركا أن الحروب القادمة هي حروب إقتصادية .>> (1) لكن للأسف الشديد الظاهر أن الإنسان المسلم لم يستيقظ من سباته ولم يدرك بعد هذه الحقيقة .فرغم جلاء الجيوش الأجنبية عن الديار العربية والإسلامية وإعلان الاستقلال والاحتفال به كل عام إلا أن التبعية واضحة للعيان في جميع المجالات بما فيها المجال الاقتصادي خاصة . وهذا لا يعودإلى نقص في الإمكانيات والثروات ولكن يعود حسب " مالك بن نبي" إلى الإنسان المسلم المستلب الشخصية المعتقد الظان بل والجازم أحيانا :

بأن المناهج الاقتصادية المتجسدة في الرأسمالية والإشتراكية مسألة حتمية لا بديل عنها ولا أحسن ولا أفضل منها ولذلك راح بعض القادة وبعض المثقفين يطبقون على شعوبهم في الحياة الإقتصادية تارة المنهج الإقتصادي الليبرالي وتارة أخرى المنهج الإشتراكي متوهمين بأنها مصدر تغيير أوضاعنا وحياتنا الاجتماعية .

---

(1) د/ إدريس خضير : فلسفة الاقتصاد في الإسلام ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 ص 9 (بتصرف)

<< لكن استقراء الواقع اثبت و بما لا يدعو مجالا للشك فشل الحلين الدخيلين : الليبرالية والإشتراكية في إقامة حياة إقتصادية سليمة متكاملة تتحقق فيها زيادة الإنتاج و عدالة التوزيع ,حياة يتوفر فيها العمل الملائم لكل عاطل , و الأجر العادل لكل عامل , و الكفالة المعيشية لكل عاجز, و تكافؤ الفرص لكل مواطن , بحيث يجد المواطنون حاجاتهم الأساسية من الغذاء و الكساء و المسكن و العلاج و التعليم دون عائق . كما فشلوا في القول لمحاربة الأعداء الثلاث : الفقر و المرض و الجهل . إذا لا هؤلاء و لا أولئك أطعموا الشعب من جوع أو أغنوه من فقر أو أخرجوه من ظلمات الجهل فلا زالت نسبة الأمويين في بلادنا من أعلى النسب في معظم بلاد العالم . و في الجانب الأخر , جانب الكفاية و زيادة الإنتاج لم تزل بلادنا معتمدة على الإستيراد في آلات الإنتاج ووسائل النقل و معظم مصنوعات الحضارة>> (1)

حتى الزراعة التي كانت حرفة أجدادنا من ألاف السنين لم نرق بها إلى المستوى اللازم لنا و اللائق بنا كما و نوعا .

<< و مازلنا نستورد القمح و الحبوب من خارج أرضنا و إلا هلكنا جوعا , و هكذا صرنا نعتمد على غيرنا في جلب الطعام الذي به عيشنا و السلاح الذي نصون به حياتنا و كرامتنا لقد فشلت الليبرالية و الاشتراكية في الرقي بالمجتمع من التخلف إلى التقدم ولم تستطع لا هذه و لا تلك أن تنتقل بالمجتمع من الإعتماد على الغير إلى الاكتفاء الذاتي بالإعتماد على الذات و من إستيراد مصنوعات الحضارة إلى إنتاجها و من شراء السلاح إلى صناعته
و من " رواية" العلم أو ترجمته إلى المشاركة فيه.>>(2)

---

(1) د/ يوسف القرضاوي : الحل الإسلامي فريضة و ضرورة الصحوة الإسلامية
الدوحة 1974 ص8

(2) د/ يوسف القرضاوي : المرجع السابق نفسه ص8 , 9

لهذه الأسباب كلها حاول المفكر الجزائري"مالك بن نبي" رحمه الله أن يمنح للجانب الإقتصادي قيمته في تغيير الشعوب والمجتمعات .إلا أنه يجب الإشارة إلى أن الاقتصاد عند " مالك بن نبي" ليس سوى إسقاط البعد السياسي على نشاط إنساني معين . فبقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادىء أخلاقية, يبقى الإقتصاد وفيا للمبادىء ذاتها. فالترابط بين الجهد والفكر يؤسس لبناء سياسة اقتصادية هي مرتكز النهضة والحضارة .

إن حل المشكلة الإقتصادية منحصر في الوعي الإقتصادي ويتجلى هذا الوعي الإقتصادي في التكوين الشخصي للفرد وتغيير مبادئه ونسق نشاطه ومواقفه أمام المشاكل الإجتماعية والتي لاتحل إلا في إطار الإتحاد الاقتصادي أكان زراعيا أو صناعيا .

وهذا ما نشاهده اليوم في التكتلات الإقتصادية كالإتحاد الأوروبي مثلا .أما العالم العربي أو الإسلامي فنقولها وبكل مرارة بأنه أمسى آلة تدور في الفراغ . لكل قطر وجهته , تشتتت دوله وصارت كالريش في مهب الرياح لأن مختلف الأنظمة والإيديولجيات التي طبقت عليها والتي صنعت في مخابر البلدان المتقدمة وليست نابعة من جوهر روحه وحقيقتها. ولتوضيح هذا الأمر ضرب لنا" مالك بن نبي" مثالا للدكتور الألماني " شاخت" (1)

والذي وضع مخططا لبلده ولأندونيسيا ولماذا نجح هذا المخطط في بلده ألمانيا ولم ينجح في اندونيسيا ؟ إن الدكتور " شاخت" لم يأخذ بعين الاعتبار المعادلة الاجتماعية. فماهي هذه المعادلة الاجتماعية يا ترى ؟

يمكن أن نعرفها بمقارنتها بالمعادلة البيولوجية والتي تسوي بين الناس وهي هبة من الله لعباده. أما المعادلة الاجتماعية فهي تختلف من مجتمع إلى أخر , بل وحتى في المجتمع الواحد .(إنها قاسم مشترك يطبع سلوك أفراد مجتمع واحد وتميزه عن غيره .

وهذه المعادلة الاجتماعية إما أن تكونها الأيام بتكرار التجارب وإما أن تتكون تحت إشراف إدارة هادفة تعي ما تفعل وما تريد لمواجهة ظروف الحياة القاسية .

---

(1) د/ شاخت: Horace- Schacht : اقتصادي ورجل سياسي ألماني (1877 - 1970م)

شغل العديد من المناصب في ألمانيا (رئيس البنك المركزي , وزير الاقتصاد) تم عمل مستشارا اقتصاديا لدى حكومات دول عدة منها : سوريا , اندونيسيا , إيران , مصر.

أما الإختيار الأول فهو إختيار أوروبا منذ القرن السادس عشر , وأما الإختيار الثاني فهو إختبار الصين الشعبية والمسلمين الأوائل . وقد أصبح العالم الإسلامي في حالة تفرض عليه أن يتخذ قرارات صارمة في المجال الاقتصادي لمواجهة التحديات الحضارية .

فالتخلف لا نفسره دائما بإرجاعه إلى العامل الاقتصادي لوحده وبالتالي لا ينبغي أن نتجاهل الإنسان لأن كل ثورة وكل بناء وكل تغيير ينطلق منه ويعود إليه) (1) .

إن الاقتصاد مهما كانت نوعيته المذهبية هو تجسيد لحضارة على شرط أن نحددها بمجموعة الشروط المادية والمعنوية , والجانب المعنوي هوالإرادة . والشروط المادية هي الإقتصاد .وقد وفرالإسلام في حضارته الشروط المعنوية المتمثلة في الإيمان والمادية المتمثلة في الزكاة .وهنا يفرق " مالك بن نبي" بين الإستثمار المالي والإستثمار الإجتماعي موضحا كيف أن "الصين الشعبية" تقدمت إقتصاديا وبسرعة مرموقة حينما طبقت منذ اللحظة الأولى خطة تعتمد على مبدأ الإتكال على الذات أي على الإنسان الصيني والتراب الصيني والزمن المتوفر في كل أرض وبالتغيير الإقتصادي حينما إعتمدت على مبدأ الإستثمار الإجتماعي فصارت نموذج لدول العالم الثالث في إستثمار الإنسان والتراب والزمن . ولا يكتفي " بن نبي" بذلك بل يرى أن الدينا ميكا الاقتصادية تعني التفاعل بين الإنتاج والإستهلاك لأن الحاجة في نظره نوعان :

حاجة يغطيها المال وحاجة تغطيها الإرادة الحضارية كما هو الشأن بالنسبة للزكاة في الإسلام وهذا الأخير يلبي حاجيات أفراد مجتمعه . طبقا للإرادة الحضارية والتي تجعل الديناميكا تتمثل في مسالتين هما :

- لقمة العيش حق لكل فرد
- العمل واجب على كل ساعد

وبذلك يستطيع العالم الإسلامي أن يعوض الإستثمار المالي بالإستثمار الإجتماعي حتى لا يقع في الإستيلاب الإقتصادي بحيث يتناقض المجال الاقتصادي مع مجاله الروحي و يتفادى الإنحرافات الإباحية للرأسمالية والمادية المفرطة للماركسية التي سلبت الإنسان ما يميزه عن الآلات والأشياء .

---

(1) د/ عبد اللطيف عبادة : صفحات مشرقة من فكر" مالك بن نبي" دار الشهاب للطباعة و النشر باتنة ط/1 - 1984 ص 52, 53, 54, 55 (بتصرف) .

وهذا يعني أن هناك ترابط بين الحياة الإقتصادية والحياة الأخلاقية .إذا لنا إقتصادنا الخاص المتميز والذي لم ير النور إلى حد الآن وبقينا تابعين . ولكن على من نلقي التبعية يا ترى؟ سؤال تصعب الإجابة عنه بسهولة ويسر ودقة. إلا أن " بن نبي" يسمح لنفسه وهو شاهد القرن أن يلقيها على كاهل المفكرين الذين لا يجب أن يقلدوا كما يفعل العوام ولا ينبغي أن يشل حركة تفكيرهم إيمانهم وتصديقهم بأنه ليس في الإمكان في ميدان الفكر الاقتصادي بأبدع مما كان .فالمفكرون السابقون"كماركس" و"آدم سميث"و" ريكاردو" وغيرهم ما هم إلا بشر مثلنا لهم محاسنهم وثقافتهم ,وعلينا أن لا نعتقد بأن ما وصلوا إليه حتمية بل وشر لابد منه فمن غير المعقول أن نقلد الرأسمالية في إباحيتها , ولا الماركسية في ماديتها . وأن تكون لنا الثقة في أنفسنا وفي القدرة على التغيير وعليه" فمالك بن نبي" يوصي بل ويحث علماء الاقتصاد في العالم العربي والإسلامي بأن لا يطأطئوارؤوسهم أمام المذهب الرأسمالي,ولا أمام زخرف القول "الماركسي" وبذلك فهو يدعو دعوة صريحة إلى الاستقلال الفكري ومن ثمة الاستقلال الاقتصادي .

وقد حدد " مالك بن نبي" جملة من الأفكار المتعلقة بالتنمية الاقتصادية(1)

وهي كالتالي :

<u>أولا:</u> إنقسام شعوب ومجتمعات الكرة الأرضية إلى صنفين: شمال , جنوب . فالشمال أكثر تقدما وتحضرا من الجنوب السائر في طريق النمو وهي مختلف المجتمعات التي لم تدخل بعد ميدان الحضارة ومعركتها وهذا دليل على إرتباط التنمية الاقتصادية والتغيير الاجتماعي والحضاري والتغيير الاقتصادي بدوره تجسيما للتغيير الاجتماعي .

---

(1) د/ عبد اللطيف عبادة :المرجع السابق نفسه ص51

ثانيا : التفاعلية الموجودة بين العوامل الضرورية الذاتية المتوفرة مثلا لدى الإنسان كالتراب والزمن بإيعاز من الفكرة الدينية والتي إن تمت ¸ أي التفاعلية بين العناصر السالفة الذكر هو الذي يؤدي إلى حدوث التغيير الا قتصادي والذي ينبثق عنه التغيير الاجتماعي .

ثالثا : ضرورة الربط بين فكرتي الحقوق و الواجبات أو بين الاستهلاك و الإنتاج و في هذا يرى" بن نبي" أن التغيير الاجتماعي لا يحدث إلا إذا رجح المجتمع الإنتاج و الواجبات على غيرها و بالفعل ما نشاهده اليوم أن بعض المجتمعات صارت للأسف الشديد مستهلكة بالدرجة الاولى إذ نجد فيها أن الفرد لا يتكلم إلا عن حقوقه المهضومة ولم يطرح أبدا على نفسه ذلك السؤال الوجيه:

هل قمت بواجبي و أديته على أحسن وجه؟

بل و هل قمت بأكثر مما يمليه علي واجبي ؟

إن الجواب على هذا السؤال ليس بالأمر الهين لأن الطبيعة البشرية تميل دائما إلى حب التملك والحصول على أكبر قدر ممكن من المنافع والحقوق وبأسرع وأسهل السبل الممكنة كما أننا تعودنا مثلا في مجتمعاتنا على هذا النمط ¸ أي المطالبة بالحقوق دون النظر إلى الواجبات وهل أديناها كأمانة أم لا ! والعادة كما نعلم ليس من السهولة بمكان إطفاؤها والقضاء عليها لأننا نجد أنفسنافي مواجهة الطبيعة البشرية من جهة ومن جهة أخرى في محاربة تلك العادة والقضاء عليها .

رابعا: لا قيمة بدون إرادة التنمية . وهذه العملية تشبه الدور الديكارتي طالما أن التغيير ينطلق من الإنسان ويعود عليه و في مختلف مجالات حياته الاجتماعية وهنا أتذكر عبارة الرئيس الفرنسي الحالي "جاك شيراك "حينما قال فيما معناه :<< نستطيع أن نفعل أي شيء ضد الإنسان ولكننا لا نستطيع أن نفعل أي شيء ضد إرادة الإنسان >>

إن الإنسان حينما يريد و يعقد العزم بإمكانه أن يغير الكثير من أوضاعه و ظروفه الاجتماعية دون أن ننسى أن" بن نبي" ركز على الاستثمار الاجتماعي حينما يكون الاستثمار المالي غائبا أو معدوما . و قد أعجبني أحد الأحزاب الجزائرية إلى عهد قريب حينما أسس حزبه " الإنسان رأس مال" و لكن ما لبث أن أصبح في خبر كان.

و لعل ما يميز مجتمعاتنا هو توفرها على عناصر و مقومات التغيير الاجتماعي و من هذه المقومات يمكن ان نذكر ما يلي :

أولا: الوضع الإستراتيجي للجزائر و للعرب و للعالم الإسلامي الذي يشكل العمود الفقري للكرة الأرضية , فهو أي العالم الإسلامي يمتد كسلسلة طويلة متصلة الحلقات بين أندونيسيا و مراكش و يشرف على مواقع إستراتيجية هامة و هي في وضعها هذا تشغل مركزا بالغ الأهمية في الشؤون الدولية و لعل " أزمة قناة السويس" سنة 1956 بين المعسكرين خير دليل على ذلك.

ثانيا: وضع المسلمين من الناحية العددية عاملا رئيسيا له أهميته الخاصة و هذه القوة العددية إذا أحسن إستثمارها و تعبئتها تستطيع أن تعمل الكثير على تغيير أوضاعها و أحوالها .

فالمجتمع الجزائري على سبيل المثال في هذه النقطة يتوفر على كم هائل من عنصر الشباب و نحن نعلم ما لعنصر الشباب من قوة في العطاء الفكري والبدني حتى أن المولى عز وجل كما ورد في الحديث يسأل المرء عن شبابه في ما أفناه وقضاه . ولعل بعض المشاريع خاصة السد الأخضر وطريق الوحدة الإفريقية في الجزائر والتي تمت بسواعد شباب الخدمة الوطنية دليل قاطع على ذلك .

ثالثا : أغلبية الدول المكونة لهيئة الأمم المتحدة دول إسلامية وإذا ما إتحدت هذه الدول وأحدثت مظهرا مشتركا , ووحدت صفوفها , أمكنها إثبات وجودها كقوة سياسية أو ثقافية أو اقتصادية فعالة في الشؤون العالمية وإنه لمن المؤسف حقا أنه وبالرغم من هذه النسبة الكبيرة من التمثيل التي يمثلها المسلمون في أهم ميدان دولي فإنهم لا يزالون في عداد الأتباع لا في عداد القادة .

رابعا :

الوضع الاقتصادي للعالم الإسلامي غير مدروس دراسة موضوعية علمية صحيحة من قبلنا ويجري غالبا بموجب نظريات دخيلة بعيدة عن روحنا ومعتقداتنا مما يجعل الإنسان في مجتمعاتنا تنطبق عليه تلك الحكمة الشعبية القائلة :

((جاء يمشي مشية الغراب فنسي مشيته)) وصار تابعا للغير في كل الأشياء الاقتصادية رغم أنه من أغنى المناطق في العالم ونعني بذلك مناطق العالم الإسلامي بما يحتويه من

ثروات طبيعية كالبترول والغاز وحتى اليورانيم الذي أصبح ثمينا للغاية في هذه الأيام نظرا لاستعماله في إنتاج الطاقة النووية .

أما التربة الزراعية فلا يجحدها جاحد ولكن كما قال البعض : حينما أصبحت الأمة الإسلامية إسلامية بشهادة الميلاد وابتعدت عن المفهومية الإسلامية نجم عنها ما نجم وترتب عنها ما ترتب لأن المفاهيم المطبقة عليها مفاهيم غريبة عنه لا تعبر عن روح هذا الشعب فنحن نرى الظلم الاجتماعي البين والتفاوت الطبقي الفاحش , أفراد يلعبون بالملايين والملايير وجماهير لا يجدون الملاليم قصور تشاد وربما لا تسكن في السنة إلا أيام معدودات , على حين يموت الملايين في العراء لا يجدون ما يحميهم من حر الصيف ولا برد الشتاء . أناس تموج خزائنهم بالذهب وأرصدتهم في البنوك الأجنبية بأرقامها السرية والخيالية والتي لا يعلم مقدارها إلا الله والكرام الكاتبون وسواد الناس جيوبهم خاوية قانعين بالقليل منشدين قول "أبي العتاهية " :

حسبك ما تبتغيه القوت

ما أكثر القوت لمن يموت

ومع هذا لا تجد ما تشتري به هذه الشعوب قوت يسد جوع أطفال يصرخون , وكبار يتألمون , ولو تبرع ثري من أثرياء الانفتاح أو وسطاء الشركات العالمية بما يكسبه في صفقة أو يخسره في ليلة على المائدة أو ينفقه تحت أقدام شقراء لأغنى الكثير من العراة وكيف لا والثروة الضخمة تجمع وتنهب , والرشوة لها أسواق واللصوص الصغار وحدهم يتعرضون للعقاب الأليم فتلك الأوبئة , داء الحسد والبغضاء يفتك القلوب والعلاقات ودعاة المبادىء الهدامة يستغلون هذه المناخ وتناقضاته الصارخة ليؤججوا نار الصراع الطبقي والحقد الاجتماعي وأساس هذا كله هو البعد والابتعاد عن المفهومية الإسلامية الصحيحة .

عالم الأشياء:

لقد خلق الله الإنسان من المادة وجعل حياته مرهونة بالأشياء المادية الموجودة حوله . فكان من الضروري أن يتهافت عليها ويحاول جعلها ملك يديه وطوع إرادته. ومن هناك كان التسابق إليها والتنافس من أجلها . بيد ان الأسلوب المستعمل في ذلك يختلف باختلاف الأشخاص فمنهم من يقبل على الطبيعة ويستخرج خيراتها ويشغلها ومنهم من يلجا إلى الكسل والجمود ويحاول أن يعيش عالة على غيره من العاملين . كما أن هناك من يقتنع بالقليل وهناك من يرغب في الاستحواذ على أكبر ثروة ممكنة وصار الإنسان لا يكتفي باستغلال الطبيعة كما هي في الواقع بل يدخل عليها تعديلات وإصلاحات وقد يحول بعضها من شكلها الأصلي ويمنحها طابعا إنسانيا ويستغل بذلك ما سخره الله في هذا الوجود وجعله في متناوله وهذا ما يسمى عند " بن نبي " بعالم الأشياء وقد ذكر ه القرآن الكريم حيث يقول تعالى : ((هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور)) * وقوله أيضا : <<والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا >>*

إن كلمتي ذلولا وبساطا تدلان على أن تسخيرها للإنسان وفي نفس الوقت إستغلال خيراتها أكانت ظاهرة أم باطنة . وعلى هذا الأساس فان الموارد الاقتصادية بالنسبة للإنسان مصدرها الوجود الطبيعي بصفة عامة والأرض بصفة خاصة والتي تعد أكبر مورد وأعظم منبع للحياة الاقتصادية ولما كان الإنسان جزءا من الطبيعة فإن العلاقة بينهما علاقة أثر وتأثر . لذا منح المفكر الجزائري " بن نبي" أهمية بالغة لعالم الأشياء في حركة تغيير المجتمع . وقد حدده على الشكل التالي : كل ما يحيط بالإنسان من عوالم مادية وثقافية إذ أن الشيء في رأيه هو ذاك الكائن الذي يحتاج إلى إستعمالات عدة من جوانب عدة من مجالات حياة الإنسان . وكلمة شيء تعني الشيء كما هو في الطبيعة على ماهيته وأصله وما أدخلته عليه يد الإنسان من تغييرات عن طريق العلم والتكنلوجيا .

كما تعني كلمة شيء ذاك التراث الثقافي , وذاك الرصيد من الأفراد .

---

* الملك : الآية 15

* نوح : الآيتان 19-20

ولذا عالم الأشياء عنده يتفرع إلى فرعين :
- عالم الأشياء الثقافي : وهو ما يسميه بالشيئية
- عالم الأشياء المادي : والذي يتجسد في العالم الاقتصادي لحياة الفرد والجماعة .
أما الشيئية فتعني حسب " بن نبي" كل منتوج مادي أو ثقافي مخزن ومكدس .
وهناك الشيئية بالمفهوم الحرفي في الثقافة أي مكتبة متنقلة وهذا النوع من المثقفين حسب " بن نبي" يسمى " بالمتعالم" أي المتحصل على دبلوم الشيئية فهو شبيه بذلك الوصف القرآني في قوله تعالى : (كمثل الحمار يحمل أسفارا)*
وهناك " المتعالم" الذي لا يملك شهادة أو دبلوم والذي يقوم باستيراد الأشياء وليس عيبا في أن نستورد الأشياء , ولكن العيب في أن يصبح هذا الإنسان تابع للغير أو تابع للأشياء والشيئية وبالتالي فاستيراد الأشياء لم تفعل فعلتها في تغيير أوضاعنا الاجتماعية وهذا عكس الإنسان الياباني الذي قام بسرقة العلم والتكنلوجيا من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وغير من أوضاعه وطور مجتمعه وبنى صرح حضارته ودخل التاريخ من بابه الواسع .ويشير " بن نبي" إلى شيء آخر وهو أثر الشيئية على الإنسان أو المجتمع إذ يصبح هذا الأخير مجتمعا إستهلاكيا فقط ويقدم حقوقه ويطالب بها دون أن يؤدي واجباته طبقا للمعادلة : **حق- واجب= استهلاك**

والواقع أن المسلمين عامة ومن بينهم الجزائريين أخذوا من المدينة الحديثة جانبها البراق وكانوا معها مستهلكين لامنتجين . بل لقد صنعت لهم سيارات خاصة وأدوات من الزينة أو أنواع من الأجهزة لا يستخدم مها صانعوها أنفسهم لأننا في نظرنا نظن أن الارتقاء أو العظمة في اقتناء هذه السلع . وكان من باب أولى أن نصف ما نشتريه من الخارج يمكن الاستغناء عنه في أمد قريب وإذا لم نتعلم من ديننا ضبط شهواتنا فماذا نتعلم ؟
حتى بني إسرائيل كما يقول الشيخ "محمد الغزالي" في كتابه " الحق المر" بنوا دولتهم بين ظهرانينا على أساس أنهم ينتجون ونحن نستهلك ! وكأننا أطفال نحب اللعب الجميلة وندفع ثمنها لمن يصنع بها السلاح الذي يقتلنا به (1) .

---

* الجمعة : الآية 05

(1) محمد الغزالي : الحق المر - مكتبة التراث الإسلامي دار النشر الجزائر ص 36, 37

وهذا يعني أن عالم الأشياء لايمكن أن يؤدي دوره إلا بالعوامل الأخرى "عالم الأفكار"و"عالم الأشخاص" تحت دافعة الفكرة الروحية .

لذا حدد"مالك بن نبي" شروط الحركية الاقتصادية التي تساهم في التغيير الاجتماعي على النحو التالي :

- لقمة العيش حق لكل فم
- العمل واجب على كل ساعد (1)

وتحقيق طرفي هذه المعادلة يتوقف على ما يسميه "بن نبي" بالإرادة الحضارية والتي تضع الامكان الحضاري إجتماعيا كما يشترط لأي إقلاع اقتصادي وإنطلاقه الشروط التالية :

ضرورة الاكتفاء الذاتي وعدم التبعية للغير .

- أن نجعل الاستثمار المالي في خدمة الجانب الاجتماعي .
- أن نقوم بوضع أساس أخلاقي لعمليتي الإنتاج والتوزيع

ولعل التجربة الألمانية خير دليل على ذلك في نظر "مالك بن نبي" إذ أن التغيير الاجتماعي نابع من ذات الفرد الألماني ومن داخله . أما عندنا فعملية إستيراد الأشياء أو ما يسميه "بن نبي" بالتكد يس في نظر البعض ومنهم حتى القادة تعتبر تغييرا للأوضاع الاجتماعية وتشييد صرح حضارة هذا المجتمع أو ذاك .وإذا كانت الخيرات والثروات والأشياء الموجودة في الأرض العربية ومنها الجزائرية فهل في إمكان المجتمع الجزائري إستغلالها أحسن إستغلال؟ الجواب واضح إذ ليس في وسعه أن يستغلها ما دام لا يكسب وسيلة الاستغلال والتغيير .وعليه لايمكن فصل هذا المجتمع عن دينه ولغته وقيمه ولا عن وسائل معيشته ولا حتى عن المكان والزمان اللذين يوجد فيهما . فكل جيل إبن بيئته وزمانه وله خصائصه ومقوماته التي يتحلى به و التي تمنحه صفة الذاتية الجزائرية . إن عالم الأشياء واحد من مقومات التغيير الاجتماعي إذا أحسن استغلاله و استعماله و هو وثيق الصلة" كعالم الأفكار" و " عالم الأشخاص" و هذه العوالم جميعا تتوقف على مدى وعي فكر الإنسان فإذا كان ضيق الأفق فان مقومات التغيير أو تلك العوالم تكون على حسبه.

---

(1) مالك بن نبي : المسلم في عالم الاقتصاد ص 82

و إذا كان واسع الأفق تكون في مستواه اللهم الا إذا صخر هذا الفكر في التفاهات و السخافات و بقي يدور في حلقة مفرغة .

حينئذ تصبح محاولات التغيير الاقتصادي مجرد شطحات و أحلام غير هادفة .

<u>مفهوم الاكتفاء الذاتي:</u> و يتمثل مبدئيا في كفاية المجتمع لمتطلباته و حاجياته في مختلف المجالات وكفاية نفسه بنفسه إبتداء بالجانب البيولوجي كالغذاء و الذي يعتبر أساس الصراع الاقتصادي لكونه يضمن بقاء النوع و يصونه . والأمن الغذائي أو الاكتفاء الذاتي " الغذائي"هو : إستطاعة و قدرة أي بلد من بلدان العالم على توفير الاحتياجات الغذائية لسكانه بصفة دائمة و يتوصل إلى ذلك بواسطة الإنتاج المحلي أو بواسطة عملية الاستيراد, إذن الأمن الغذائي الحقيقي الدائم هو المتوفر محليا .(1)

و لذلك أشار" مالك بن نبي" في معادلته الشهيرة : **إنسان + تراب + زمن = حضارة**

أي أن بناء صرح حضارة يتوقف على العوامل الذاتية المتوفرة لدى كل المجتمعات قبل العوامل الموضوعية و هناك من المجتمعات و الأمم من استغلها و هناك من فرط فيها و صار تابعا لمن استغلها و شتان بين الاثنين.

ومن مظاهر التبعية وعدم الاكتفاء الذاتي مايلي :

المجاعة : تعد المجاعة من أخطر الظواهر التي تعاني منها العديد من البلدان العربية الإسلامية كالسودان والصومال .

سوء التغذية : في تناول الأغذية الجيدة التي تحتوي على الفيتامينات والبروتينات , ودون الغوص في مظاهر عدم الاكتفاء الذاتي يجدر بنا أن نذكر أسباب وعوامل عديدة إلى أن يصل العالم العربي والإسلامي إلى الاكتفاء الذاتي وتتمثل في عاملين أساسيين :

- **<u>العامل البشري والعامل الطبيعي:</u>**

- **الأسباب البشرية** :

- الاستعمار الأوروبي الذي بقي مدة طويلة في البلدان العربية والإسلامية حيث استغل ثرواتها الطبيعية المتنوعة .

---

(1) أ. الطاهر قسام : المفتاح في الجغرافيا للبكالوريا دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع برج الكيفان ص 221 .

- سوء التسيير الاقتصادي في البلدان العربية والإسلامية وعدم إعطاء الأولوية والأهمية الكبرى للقطاع الزراعي بالدرجة الاولى .

- النظام الاقتصادي العالمي الجائر الذي تسيطر عليه البلدان المتقدمة .

- إستغلال الشركات الإحتكارية المتعددة الجنسيات للمياه والأراضي الزراعية في البلدان المختلفة وبالتالي الاستفادة من الإنتاج الزراعي .

- الانفجار الديمغرافي الذي تعرفها البلدان المتخلفة مما يؤدي إلى اختلال التوازن بينه وبين النمو الزراعي .

الأسباب الطبيعية :

- الظروف المناخية القاسية التي تسود معظم البلدان المتخلفة فالجفاف مس مناطق واسعة من الوطن العربي والإسلامي . أما الفيضانات فلا تخلو منها سنويا .

- التصحر الذي يزحف على مناطق زراعية شاسعة في العديد من البلدان العربية والإسلامية الأمر يؤدي إلى تقليص مساحات زراعية ولسعة .

أما من نتائج عدم الاكتفاء الذاتي في العالم العربي والإسلامي نذكر ما يلي :

- **التبعية الغذائية:** أصبحت البلدان العربية والإسلامية في تبعية شبه تامة وكاملة في مجال التغذية للبلدان المتقدمة التي تستعمل المنتوجات الغذائية " سلاحاأخضر" تشهره حسب الظروف والأحوال و حسب ما تقتضيه الحاجة وخاصة حسب ما تقره مصالحها قي وجه العالم العربي والإسلامي والتي ترفض الدوران في فلكها .

- **التبعية الاقتصادية :** أصبحت البلدان المتقدمة هي التي تتحكم في اقتصاد البلدان العربية والإسلامية التي تعاني من عدم الاكتفاء الذاتي وأصبحت الشركات المتعددة الجنسيات هي المهمة اقتصاديا ثم نجم عنها الهيمنة السياسية فأصبحت الدول العربية الإسلامية لا تتحرك الا بعد استشارة الدول المتقدمة أي العالم الغربي لان حركيته قد شلت .

الاستنتاج :

تبقى الدول المتقدمة مستمرة في عرقلة أي نشاط زراعي أو صناعي يهدف إلى توفير الاكتفاء الذاتي خاصة الزراعي منه حتى يبقى العالمين العربي والإسلامي في تبعية أزلية لأن ذلك يكون في صالح الأغنياء لكن و رغم هذه التبعية و ما يمارس علينا من ضغوط و ما نعانيه من إستيلاب إلا أن وطننا العربي أو الإسلامي له من المقومات ما يجعله كتلة اقتصادية كبرى لها وزنها و حسابها أمام الكتل الاقتصادية العالمية الأخرى كالاتحاد الأوربي . و منظمة التعاون لدول أمريكا الشمالية و من هذه المقومات يمكن أن نذكر

ما يلي :

- امتلاك الوطن العربي و الإسلامي لأراضي زراعية شاسعة ذات خصوبة عالية
- تنوع الأقاليم المناخية بحيث كل إقليم يساهم في إنتاج منتوجات غذائية و نباتية متنوعة كما يسمح بتربية المواشي حسب كل نوع .
- امتلاك الوطن العربي و الإسلامي لثروات طبيعية متنوعة و ضخمة جدا موارد الطاقة والمعادن , المياه ...
- توفر الثروة البشرية خاصة عنصر الشباب كما يظم العالم العربي و الإسلامي علماء خبراء ذوي كفاءات علمية عالية جدا في مختلف التخصصات خاصة الأدمغة المتواجدة في البلدان الأجنبية,, و عليه ماذا بقي علينا فعله و القيام به نحن العرب و المسلمون ؟

الفعالية في الإنجاز و التنفيذ و التطبيق فالسوق العربية المشتركة و التي أنشات منذ عام 1964 و التي تنص على قيام وحدة اقتصادية كاملة بقيت حبرا على ورق إذ نلاحظ عدم حرية إنتقال الأشخاص و رؤوس الأموال و حتى القمم الجهوية . كالقمة الخماسية المنعقد بالجزائر بتاريخ 10 / 07 / 1988 بزرالدة حيث قرر المجتمعون (أي قادة اتحاد المغرب العربي) بناء مغرب عربي موحد قائم على أسس التكامل الاقتصادي أو مجلس التعاون الخليجي و الذي يظم السعودية و الكويت و الإمارات العربية المتحدة , قطر , البحرين , عمان و غيرها .

إلا أنه وللأسف الشديد لم يجسد لحد الآن التكامل الاقتصادي و لم تحقق آمال شعوبها و غاياتها .

- فهل من تحرك جدي و فعلي تدفعه النخوة العربية و الإسلامية إلى آفاق الألفية الثالثة بكل ثقة . و هل من فعالية فعالة تجعل الحلم حقيقة ؟

ذاك هو التحدي.

الفصل الثالث

الفصل الثالـث :

مقاصد أو غايات التغيير :

1- بناء الإنسان الجديد:

- الإنسان في المجتمع.
- البنـاء الفكري والإيديولوجي للإنسان الجديد
- بنـاء الإنسان كفاعلية في التاريخ ومن ثمة بناء المجتمع التاريخي .

2- البناء الحضاري :

- حل مشكلة التوجيه الثقافي
- حل مشكلة التوجيه السياسي
- حل مشكلة التوجيه الإقتصادي

بناءالانسان الجديد:

لقد خلق الله آدم من تراب وحده ثم نفخ فيه من روحه ثم خلق منه زوجته وعنهما إنبثقت الإنسانية وتفرعت إلى قبائل وشعوب واختلفت في ألسنتها وألوانها ومعتقداتها وعاداتها وتقاليدها حتى يخيل للناظر أنها لا تعود في أصلها إلى منبع واحد وبالخصوص حين يلاحظ كل مجتمع يفتخر بأصله وفصله ويحتقر المجتمعات الأخرى كما تقول بذلك المذاهب والنظريات العرقية بل ويكنّ لها البغضاء والعداوة وكل من وجد القدرة على الآخر يهينه ويستغله ويستعبده ويرى نفسه أحق بالسيادة والمجد .

والواقع المعيش في كل زمان وفي كل مكان يعطينا أكبر دليل على ذلك . وما الحروب التي تظهر من حين لأخر بين الشعوب والأمم إلا دليلا على ذلك بل وحتى بين ذوي المذهب الواحد تقوم مرة تلوى الأخرى نزعات وحروب كأيلول الأسود 1970 بين الفلسطينيين والأردنيين أو الهند والباكستان وكل هذا يتوقف على أنانيين مغرورين أكانوا قادة أو سياسيين أو جنرالات عسكر .

وبطريقة أخرى كل هذا يتوقف على العنصر البشري (أي الإنسان) لأننا قد نستورد المصانع والآلات والأجهزة ولكننا لايمكن أن نستورد البشر .

والمتأمل في تاريخ الفكر قديمه وحديثه يجد تراثه الزاخر بالحكم وفلسفاتها والشرائع ومقدساتها والقيم وأخلاقها والمعارف على إختلاف آفاقها والعلوم على إختلاف ميادينها تتمحور حول قيمة الإنسان وأهميته . ولذلك نجدها في قيمتها الأخلاقية وأبعادها العقائدية والإنسانية وفعاليتها مرتبطة بوعيه الرسالي أو الحضاري .

لذا منح المفكر الجزائري "مالك بن نبي" أهمية بالغة للعنصر البشري ((الإنسان)) إذ يعتبر هذا الأخير أي الإنسان طبعا محور كل العمليات التنموية ,الاقتصادية ,الثقافية ,الزراعية ,الصناعية أي الحضارية فكل شيء ينطلق منه ((أي الإنسان)) ويعو داليه .

وباختصار فالإنسان هو منبع كل الآثام والشرور وكل أنواع الخير والفضائل , أي هو الذي يشيد ويبني الحضارات أو هو الذي يحطمها ويدمرها.

وفي هذا يقول "مالك بن نبي"<< فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة ,إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء >> (1) لكن هل كل إنسان له من الإمكانيات والقدرات ما يجعله قادرا على إحداث التغيير في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ؟ وهل كل إنسان يستطيع تشييد صرح حضارة ؟ إن هذا لايتم ولا يحدث إلا بما يسميه "مالك بن نبي" ب((الإنسان الجديد)) .فما هو هذا الإنسان الجديد ؟ وهل هناك عوامل تعمل على بناء الفرد بناءا مثمرا يغير من مجرى تاريخه و يصنع مجد أمته؟ لقد كان بناء الإنسان المسلم قديما خاضعا لسلطان العقيدة, وحكمه كان منبثقا عن قانونه,ومجتمعه كان قائما على نظامه وأخلاقه , مستلهما من روحه وقد كانت البذرة الدينية كما يسميها " مالك بن نبي" سر إتحاده ومصدر قوته ومنبع غناه .

فكيف ينعكس الأمر حاليا , ويصبح ماكان سببا للوحدة والقوة والتقدم سببا للفرقة والضعف والتخلف اليوم ؟ .لكن ونظرا لإختلال بناء الإنسان المسلم وبعد تكوينه عن فطرته السليمة وظهور المذاهب والفلسفات الحديثة والتي جعلته مستلب الشخصية بعيدا عن مصادر طاقة قوته , إذ يبدو أن ما نسميهم اليوم مسلمين بعيدين عن الإسلام بل ومتنكرين له أحيانا تراجعوا عن سلطانه ولم يعد أكثر من شعارات ترفع في المساجد وكلمات تردد في المحافل . إن ربط التخلف بالدين للأسف الشديد نقولها وبكل مرارة قد غدا عند طائفة من الكتاب العرب حركة آلية في سير تفكيرهم لا تكاد تختلف عن آلية ارتباط الطعام بقرع الجرس في التجربة التي أجراها العالم الروسي"آدموند بافلوف"E-PAVLOV" لإثبات نظريته المشهورة عند رد الفعل الشرطي .إذا فما حقيقة هذه التهمة ؟

---

(1) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 26.

حقيقتها أن الخائب عندما يغص بالإعتراف بخيبته يشتهي أن يلحق بغيره التهمة , وأن يستعيض عن خذلانه بجعجعة فارغة أتركني عليهم ! ... وإلا فما من عاقل ذي نصيب من ثقافة وفهم إلا ويعلم أن أي أمة من الأمم الناهضة أو المتقدمة لم تكلفها نهضتها أن تنبذ دينها أو تاريخها أو شيئا من تقاليدها أيا كان مستوى ذلك كله .

لقد نهضت اليابان نهضتها المعروفة وأخذت تنافس كبرى الدول الأوروبية في شتى ميادين الصناعة والعلم , فهل كلفها ذلك أن تتجرد عن شيء من طقوسها الدينية أو ما تؤمن به من مقدساتها التاريخية أو أن تهجر شيئا من معابدها أو تجحد شيئا من غيبياتها .

يقول أحد الصحفيين الأوروبيين في حديث له عن اليابان ونهضتها :

إن ظفر اليابان بالصين لم يثبت علو الأفكار و المبادىء العلمية التي أخذتها اليابان عن الغرب وكفى , بل أثبت أمرا أخر , وهو أن شعبا آسيويا بمجرد إرادته وعزيمته عرف كيف يختار ما رآه الأصلح له من مدنية الغرب مع الإحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته .

لقد تبوأت أوروبا مركزها الحضاري الجديد في العالم دون أن يحملها ذلك أن تتنكر لمسيحيتها أو أن تتساهل في شيء من تقاليدها وموروثاتها الدينية بل إن بريطانيا وقد كانت ولا تزال عنوانا من أبرز عناوين النهضة الأوروبية لا تفخر بشيء من علوها وصناعاتها , كما تفخر بعتيق عاداتها , وبالمحافظة على موروثاتها واليهود الذين تنبسط أيديهم على كثير من مقدساتنا وأوطاننا لا يجهل أدنى مثقف من الناس أن جميع نشاطا تهم الفكرية والعلمية والصناعية وغيرها , إنما تنمو عندهم في تربة الدين وتحت ضلاله .

إن إستقراء التاريخ الغابر يثبت أنه مامن حضارة سادت في عصر ما إلا وكان الدين توأما لها بقطع النظر عن نوع الدين وقيمته في ميزان الحقيقة والعلم , فالهند والصين وأثينا ومصر والشام والعراق واليمن كانت كلها مهادا للحضارات قديمة سادت وتركت أثارا لها باقية إلى اليوم وفي هذا يقول "مالك بن نبي" :

<< وكلما حدث إخلال بالقانون العام الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه >> (1)

و لا يخفى أن هذه الحقيقة التي نراها اليوم من حولنا و من خلال النظر إلى التاريخ الماضي تبدد ذلك الوهم العجيب القائل بأن الدين كان ملجأ للشعوب البدائية التي لم يكن لها من العلم ما تفهم به أسرار الكون و الطبيعة .

فكان لها من الاحتماء بالمجهول و الغيبيات ما يهدئ من روعها و حيرتها حتى إذا حطمت قيود التخلف و مزقت حجب الجهل عن وجه الكون لم تعد من حاجة إلى ذلك الالتجاء إلى المغيبات (الدين) أي أن الدين لم يعد ضروريا لأي تغيير إجتماعي أو حضاري و لكن العلم هو أساس كل شيء . بيد أن هؤلاء تناسوا أن مشكلتنا تختلف عن أوروبا لأن الإسلام لا يعارض العلم كما أنه لدينا ثروة روحية لا يمكن التفريط فيها بأي حال من الأحوال .إن الواقع اليوم يجعلنا نقول بما لا يدعو مجالا إلى الشك بأن المسلمين متخلفين ,لكن لا يجوز أن نلحق التخلف بالإسلام , أو بالا حرى بالبناء الإسلامي , بل من باب الموضوعية نقول بأن تخلفهم (أي المسلمين) يعود إلى جملة من العوامل التاريخية و الاقتصادية و إلى إبتعادهم عن عقيدتهم و نسيانها فنساهم الله. قال تعالى:

<< نسوا الله فأنساهم أنفسهم >> *

إن البكاء على الأطلال لا يسمن و لا يغني من جوع

و أنّ الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

ثم: ما مضى فات و هل فكرت   لك الساعة التي أنت فيها

---

(1) مالك بن نبي: المصدر السابق نفسه ص49 .

* الحجرات: الآية 13 .

إذن الأجدر بنا كما يرى "مالك بن نبي" أن نبحث عن منهج سليم قادر على شحن طاقات وإمكانيات الأمة وبعثها من جديد إبتداءا بإصلاح وبناء وتكوين الفرد .

فما هو هذا المنهج يا ترى ؟ وماهو العلاج؟ وما طرائقه ؟ ومن يقوم به؟ وكيف نبني الإنسان الجديدالقادرعلى التغيير الاجتماعي وتشييد صرح حضارة ؟

يرى"مالك بن نبي" أن بناء الإنسان ينطلق من إعادة النظر في بناءه النفسي الداخلي أولا ثم الاجتماعي فالسياسي والاقتصادي , وأن يكون ذلك كله من منطلق الإسلام وفي ضوء الإسلام مع الأخذ بعين الاعتبار الوقائع والأحداث الجهوية والدولية العالمية (العولمة) .

وعلينا أن نعلم أيضا أننا في عصر القلق والتمرد وهذا ناتج عن الموجة المادية التي طغت على تفكير البشر وسلوكاتهم في هذا العصر الذي وصل فيه الإنسان إلى القمر في حين لم يستطع أن يسعد نفسه على وجه الأرض .

لقد نجحت الحضارة في الجانب المادي ولكنها أفلست في الجانب النفسي , وهذا ما جعل الشباب الغربي من (الهيبز) وغيرهم يثورونا على مادية الحضارة وآلية الحياة وخرج إلى البراري والريف تاركا الأزرارالأوتوماتيكية والوسائل التكنولوجية .

لقد شعر برغم كل أدوات الرفاهية بالضياع , ولم يعرف للحياة هدفا ولا معنى و لا طعما ولم تستطع الحضارة الصناعية أن تجيبه عن أسئلته التالية :

من أنا..؟ وما رسالتي ؟ ومن أين جئت ؟ والى أين أنا ذاهب؟

هذا التمرد والقلق وجد له صدى في أوطاننا على صور شتى بعضها كان تحللا من الدين وفضائله وبعضها كان إندفاعا نحو الدين (التطرف) .

فقد وجد الكثير من الشباب عندنا لأسئلته جوابا في الإسلام , فرجع إليه بقوة واندفع نحوه بحرارة , واجتمعت حرارة الشباب بحرارة الإيمان ,وصار يعيش الطمأنينة و السكينة والوقار في ظل العقيدة الإسلامية مصداقا لقوله تعالى :

<< ألا بذكر الله تطمئن القلوب >> *

إن بناء الإنسان الجديد ينطلق من أن يعيش هذا الأخير (أي الإنسان طبعا) في حياته وطول عمره لمبدأ أو لفكرة لأنه كما قال سيد " قطب" رحمه الله فيما معناه : الذي يعيش لمبدأ أو لفكرة يعيش حيا طول حياته .

وفكرة المسلم تتجسد في عقيدته بمعنى أن يعيش الإنسان للإسلام وبه, محافظا للصلوات , هاجرا للمنكرات, محصنا فرجه , غاضا بصره , حافظا لسانه , يتحرى الحلال , ويتوخى الحرام , صائنا لوقته من اللغو , ولماله من الإضاعة فيما لا يفيد .

وعليه فيما أعتقد فإن هذا هو البناء السليم القويم الذي يستمد مختلف أفكاره ومبادئه من عقيدته والدليل على ما نقول أن أعداء الأمة ركزوا على ضرب المسلم في عقيدته لأنهم أدركوا أن قوة الفرد أو ضعفه تستمد من عقيدته ومدى صلته بها لذا عملوا على سلخه عنها حتى يسهل فيما بعد السيطرة عليه وهذا ما نجده في شبابنا المسلم اليوم إذ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات, من المائعين الذين لا تكاد تميز فيهم الفتى فيهم عن الفتاة , الذين مشووا وراء الغرب فكرا وسلوكا , حذوا النعل بالنعل !!

فهل من الإنصاف أن ننكر على الفتاة التي تلبس النقاب على وجهها , ونسخر منها ومن زيها على حين نرى الصنف الآخر من الفتيات عاريات غير كاسيات في الشوارع وعلى الشواطيء؟ وهل حفظ الدستور الحرية الشخصية في جانب العرى والإبتذال وصادرها في جانب التصوف والإحتشام ؟ للأسف الشديد نقول ونكرر وبكل مرارة أن الحضارة الحالية (العولمة) نجحت في بناء الإنسان ماديا بشكل مذهل ورهيب بل وجعلته عبدا لها . ولكنها أفلست في بناءه روحيا أخلاقيا . لذا رأى المفكر الجزائري " مالك بن نبي " أن أول ما يجب عمله في بناء الإنسان هو تصحيح نظرته و تقويم فكره وتحديد منهجه والتأكد من سلامته . وفي هذا يقول " مالك بن نبي" ما يلي: << التوجيه بصفة عامة , قوة في الأساس وتوافق في السير ,ووحدة في الهدف فكم من طاقات وقوى لم تستخدم ,لأننا لا نعرف كيف نكتلها >> (1) وهذا المنهج في نظري يبدأ بإصلاح التعليم و منظومتنا التربوية لأن وسائل التعليم الحديث إستطاعت أن تقطع الشباب المسلم عن تراثه و قامت ببناء الفرد على النظرية المادية .

---

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ص 117.

وهذا بفرض مناهج الغرب التي عملت على إبعاد الناشئة عن أصالتها وفي هذا يقول " مستر نيروز"أحد رؤساء الجامعة الأمريكية في بيروت :

(لقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان. إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمرا صعبا جدا) (1). وما يتحدث عنه المبشر الأمريكي ليس قاصرا على سوريا ولبنان ولكنه مثبت في أنحاء العالم العربي والإسلامي . وبالفعل إستطاعت تخريج شباب متهيج منهزم خاضع للأهواء والشهوات والإذاعة والتلفاز ...الخ .وكما يقول " مالك بن نبي" :

<<هدف الاستعمار لا يتعلق في الأساس بذات شخص معين , ولكن بأفكار معينة يريد تحطيمها أو كفها ,حتى لا تؤدي مفعولها في توجيه الطاقات الاجتماعية في البلاد المستعمرة >> (2). إن بناء الإنسان إذن ينطلق من ما يكتسبه من معارف ومعطيات وخاصة من المنظومة التعليمية فهي التي تحدد معالم شخصيته المستقبلية لأنه من شب على شيء شاب عليه ,ومن شاب عليه مات عليه, ومن مات عليه بعث به يوم القيامة إن خيرا فخير وإن شرا فشر .وينبغي أن يكون هناك تكامل بين مختلف المؤسسات التربوية والاجتماعية , وكل ما يتلقاه وما يسمعه ويشاهده في البيت والمدرسة والجامعة والشوارع حتى لا يحدث له انفصام في شخصيته وحتى يكون بناءه متكامل متزن ومتناسق وكما يقول: "مالك بن نبي " : << يجد المسلم نفسه في محيط المسجد لأن المسجد هو الذي ينشىء بالنسبة لضميره الوسط الأول الذي تكون فيه , فهو يجد (شخصه) ولكنه على عتبة المسجد يفقد صلته بهذا الوسط الاولي , ويجد نفسه في نطاق الظروف الاجتماعية التي تمحو (شخصه) وتبعث فيه (الفرد الخام) (3).

---

(1) أنور الجندي : سموم الإستشراق والمستشرقين دار الشهاب باتنة الجزائر ص121.

(2) مالك بن نبي : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ص37.

(3) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 99.

وهو ما يعيشه الإنسان المسلم الآن في مختلف أنحاء العالم إذ نجده ممزقا بين شطرين شطر ينظم سلوكه في المسجد وشطر ينظمه في الشارع .

وهذا الانفصال بين الجانب الروحي والاجتماعي يعود إلى جذور تاريخية انطلاقا من معركة " صفين" ولكن أثاره أخذت تتفشى في العالم الإسلامي الحديث والمعاصر.

وعلى ضوء ما سبق يستحيل أن نبني جيلا قادرا على التحدي ومواكبة العولمة وتشييد صرح الحضارة , كما يستحيل أن يتكون جيل النصر في هذا الجو الملوث والأغبر .

لقد إجتهد الاستعمار خلال قرن من الزمن أن يبني جيلا من الهزائم والويلات والمآسات وعليه : نحن مطالبون كل على مستواه بصناعة جيل التحدي والنصر ,لا يصنعه قوم تخلوا عن دينهم وتنكروا لتاريخهم ...!

إن الأيدي المتوضئة لا الأيدي الملوثة هي التي تبني هذه الأجيال أي أجيال التحدي لا أجيال التردي, أجيال النصر والقيادة والريادة .

ونافلة القول أن المشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي تقريبا المشكلة نفسها التي عبر عنها الرسول (صلعم) في قوله :<< لا يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها >>وهذا يعني بأنه علينا إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية وتوجيهها لتجاوز مختلف العوائق ومن ثمة يحتفظ باستقلاله الأخلاقي حتى ولو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى ومبادئه كما يستطيع أن ينشىء وسطه الخاص حين يؤثر على الظروف الخارجية بحياة نموذجية ينتقل أثرها إلى ما عداها. وقبل كل ذلك يجب أن يوحى من جديد إلى ضمير المسلم (الحقيقة القرآنية) كما لو كانت جديدة معاصرة حتى يراها متجسدة في مختلف أوجه الحياة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .لقد أنشئت المصانع الفخمة وأعدت أفخم المباني و كما قال أحد الرؤساء العرب :

ماذا نفعل أكثر مما فعلنا ؟ لقد إستوردنا المصانع واستوردتا الأدوات واستوردنا الأساليب

فهل نستورد الرجال أيضا؟ وهل نستورد الضمائر والأخلاق؟

إن هذه العوامل أو العناصر لا تشترى ولا تستورد لأنها صناعة محلية ذاتية لا تصنع إلا في ديارها . فهل أدرك أولى الأمر ذلك! ذلك ما نتمناه وقبل التمني ذلك ما نعمل على تحقيقه بكل قوانا . وما ذلك على الله بعزيز .

البناء الفكري و الإيديولوجي للإنسان :

قبل التطرق إلى البناء الفكري والإيديولوجي للإنسان لابد من ضبط مفهوم إيديولوجي .
فكلمة "إيديولوجي" Ideologie في اللغة اللاتينية وحسب اشتقاقاتها الفرنسية تعني نسق من الأفكار يكون مذهب وتعني أيضا مجموعة أفكار لمذاهب أو لمجتمع أو لطبقة إجتماعية . كأن تكون الإيديولوجية البرجوازية أو الإيديولوجية الاشتراكية ...الخ .
وقد ظهرت الكلمة على يدي"كارل ماركس" وأتباع المادية التاريخية في القرن التاسع عشر الميلادي . لكن يجب أن نشير إلى أن الفكر البشري عرف تداخل بين مفهومي الإيديولوجية و مفهوم العقيدة . فلقد كان ما يقابل كلمة إيديولوجي هي كلمة عقيدة إذ أن كل عقيدة تعني مجموع الصلات أو الروابط التي تربط الفرد أو الأمة بديانة سماوية أو ما يشابهها .
إذا العقيدة اصطلاحا هي :

إرتباطا بوجهة كأن تكون العقيدة الإسلامية أو العقيدة المسيحية أو اليهودية .في حين أن الإيديولوجية هي : نسق من اللبنات الفكرية القائمة عند الإنسان تهدف إلى رسم خطة أو وجهة فكرة غائية . وقد كان العالم إلى عهد قريب يتأرجح بين إيديولوجيتين لا ثالثة لهما هما :

- الرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية
- الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفياتي سابقا

أما الآن وبعد زوال وانهيار المعسكر الشرقي وانتهاء الحرب الباردة وسيادة الأحادية القطبية وفوضى العولمة , نرى المسلم ممزقا ضائعا تائها لا يعرف طريقه , ولم يحدد بعد ضالته لأنه لم يكن على استعداد لمواجهة متغيرات العالم بعولمته وذلك لهشاشة بنائه وضحل ثقافته وضعف تكوينه .

فما هو هذا الإنسان الجديد ؟ وكيف يتكون ؟ وهل هناك عوامل تعمل على بناء الفرد بناءا معينا ؟

يرى المفكر الجزائري "مالك بن نبي" رحمه الله أن استنارة الفكر وصفاء النفس والتسامي بالطباع وتهذيب الباطن من أهم العناصر والعوامل المساهمة في عملية التغيير الاجتماعي والحركية التاريخية .

كما أن إستقامة المجتمع كله ونجاح الأمة في سياستها العامة وبلوغها مكانة عالية مرموقة يجيء قبل أي شيء آخر من الفرد المكتمل والمتكامل من النفس النظيفة ومن الغرائز المهذبة , ومن القلب الحافل بالخير والرحمة والمؤثر للصدق والعدالة...

وهذا الفرد لا يبنى إلا من خلال فطرته السليمة التي فطر عليها ثم التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها فيما بعد مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم :

<<يولد الولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه >>

إن الإيديولوجية أو المفهومية لا تكون صادقة تعبر عن ماهية هذا الشعب أو ذاك الا إذا كانت نابعة من روح وحقيقة هذا الشعب , ويضرب " مالك بن نبي " لتوضيح ذلك مثال:

" بفرانز فانون " الذي تبنى موقف لا يمكن لعاقل أن يجحده ولكن في نفس الوقت لا يرتقي ولا يصل إلى مرتبة "العربي بن مهيدي" أو " سويداني بوجمعة" حتى أن البعض قال :(لكي تتكلم لغة شعب لابد أن تقاسمه معتقده)

وكما قال مالك بن نبي :<< إن فانون لا يمكن أن يمثل الشعب الجزائري لأنه لم يكن يشاطره الرأي وحسب ولم يكن يقاسمه تاريخه >>

وهذا يعني حسب " بن نبي " أن " فانون" لا يمثل إيديولوجية الشعب الجزائري لأنه نهل من ثقافة وعقيدة أخرى لا تمثل ماهية وروح الشعب الجزائري .

إذا الفصل في شخصية الإنسان والحكم عليه تنطلق من خلال النظر في معتقده الذي يؤمن به وليس فيما يبديه لنا هذا الشخص من حماس سياسي فياض أو عاطفة ثورية جياشة .إن بناء شخصية " فرا نز فانون" وتكوينه ومختلف العناصر والعوامل التي عملت على صقل شخصيته لم تكن في المسجد أو مستلهمة من الكتاب والسنة , ولم يكن مثله الأعلى يتجسد في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أو الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ولا حتى زعماء الحركات الإصلاحية بقيادة الأفغاني ومحمد عبده ولا جمعية العلماء المسلمين الجزائرين بقيادة الشيخ العلامة "عبد الحميد إبن باديس"

وإنما نهل من ثقافة معينة مسيحية بعيدة عن ديار المجتمع الجزائري ومعتقده ولعل خير مثال يوضح المسالة النشيد الوطني الجزائري النابع من صميم هذا الشعب والذي يعبر بصدق عن روح هذا الشعب وماهيته وعقيدته .

ولنتأمل قول الشيخ الإمام " عبد الحميد ابن باديس" :

شعب الجزائري مسلم ... والى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب

فهو يعبر بالفعل وبصدق عن حقيقة لكونه نابع من جوهره .وكذلك الشاعر الجزائري العملاق "مفدى زكريا" في قوله :

ولولا الوفاء لإسلامنا ... لما قرر الشعب يوما مناله

ولولا استقامة أخلاقنا ... لما اخلص الشعب يوما نضاله

ولولا تحالف شعب ورب ... لما حقق الرب يوما سؤالا

هو الدين يغمر أرواحنا ... بنور اليقين ويرسي عدالة

إذا الشعب أخلف عهد الإله ... وخان العقيدة فارقب زواله

ويعني بذلك أن الجلدة لاتوحد بين أفراد المجتمع , وأن مختلف النظريات العرقية لم تفلح في توحيد الأمة ولكن الإسلام جعل أفراد المجتمع الواحد كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

وهذا دليل واضح أيضا على أن : << إن أكرمكم عند الله اتقاكم >> *

وقوله تعالى : << ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا >> *

لذا يمكن القول أن البذرة الدينية أو الروحية تبني الإنسان بناءا متماسك الجوانب , متكامل الشخصية , سوي النفس , مدركا لمختلف المنطلقات التي ينطلق منها , عازما على تحقيق نتائجه وأهدافه المسطرة , فهو صاحب مشروع حضاري والحياة عنده كما يرى سيد " قطب" رحمه الله: عقيدة وجهاد ..

---

* : الحجرات : الآية 13

*: التوبة : الآية 55 .

إن استقراء التاريخ يثبت ما ذكرناه انفا فهذا "عقبة بن نافع" يأتي من جزيرة العرب فاتحا الشمال الإفريقي ليقف عند حدود الأطلسي قائلا :

(والله يا رب لو علمت لك أرضا وراء هذا البحر لفتحتها)

إذا حينما يتسلح الإنسان بالعقيدة أو المفهومية يغير مجرى حياته , ويصنع مجد حضارته. إن الإيديولوجية ماهي إلا علامة من علامات تنظيم المجتمع وليست هيمنة من قبل أحد على أحد أو هي تشريف وتفضيل لأشخاص معينين يمتازون عن بقية الأفراد بل هي رؤية للحياة وتوزيع للأعمال لأن الأفراد كلهم يملكون مصيرهم بأيديهم رغم أنهم يتفاوتون في الإدراك والدهاء والنشاط .

غير أن اكبر مسؤولية تتحملها تلك الفئة الواعية المثقفةلأنها تدرك مالا يدركه الآخرون ومن هنا كان عليها أن تلعب دورها كاملا في تشخيص الداء و الإشارة إلى الدواء لمعالجة المرض , ولوضع زمام الأمور بيد الصالحين المخلصين الواعيين , لأنهم هم الذين في إ2مكانهم خدمة الأمة خدمة صحيحة تطبيقا لقوله تعالى : << هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون >> *

وعلامة الاستفهام هنا أريد بها التفضيل لأن العلماء هم أعين الأمة وروادها ولا يمكن للانسلن العادي أن يعادلهم ولذلك فهم أولى بالتسيير والتوجيه .

غير أن ذلك لايتم الا بوضع إيديولوجية محكمة تصحح الكثير من المفاهيم الغامضة السائدة في زماننا هذا . هذه الإيديولوجية تعمل على توزيع المهام وتسهل مراقبة كل شخص على حدة بحيث يكون الأفراد عبارة عن مجموعة من القوانين مسلطة على المسيرين كي لا يتستر أحد بالظلام وينتهز فرصة الغفلة وينغمس في مصلحته الشخصية وينسي واجبه الاجتماعي والمهمة التي أنيطت به , وبذلك يحافظ المجتمع على مكتسباته المقدسة ويضمن السير الحسن والحياة الكريمة لكل أعضائه لأن المقومات الاجتماعية تنصهر في بوتقة واحدة ولا يمكن من الناحية الاقتصادية والسياسية , والثقافية والأخلاقية والدينية والاجتماعية فصل إحداها عن الأخرى لأنها تكون شيئا واحدا وكل جانب منها مرتبط بالآخر ومتوقف عليه , مثلا إذا كان مجتمع ما يملك الوسائل المادية ولا يملك القيم الأخلاقية هل بإمكانه تحقيق السعادة النفسية ؟ كلا .

---

* : الزمر : الآية 9

لأن القيم الأخلاقية هي التي جعلته يتعاون ويتعاطف ويحد من أنانية الأفراد وجشعهم ودونها فان الوسائل المادية لا تجدي نفعا وقد تتحول إلى وسائل دمار وخراب .

إذا لايمكن فصل المجتمع عن لغته ولا عن دينه وقيمه ولا عن وسائل معيشته ولا حتى عن المكان والزمان الذين يوجد فيهما .

إذ يعتبر كل جيل إبن بيئته وزمانه وله خصائصه ومقوماته وهذه الخصائص هي التي تميز إيديولوجية هذا المجتمع عن ذلك وتمنحه صفته الذاتية .

ولذلك جعل (مالك بن نبي) شروط الإديولوجية شروط ضرورية لتجانس وتكامل عمل الفرد وعمل الدولة في وحدة عضوية لا تنفصم أمام أهوال التاريخ .

وهذه الشروط هي كالتالي :

أولا: **الإجماع :**

لأن الإجماع هو بالتالي المقياس الجوهري الذي يميز سياسة ناجحة (1)

غير أن هذا الإجماع لا يكون مجديا هو الأخر إلا إذا تجانس عمل الفرد مع الدولة وإلا حدث العكس أي التمزق والضياع وهذا ما نلاحظه في دول العالم الثالث .

ثانيا :

التعاون السالف الذكر بين الفرد والدولة هو المحفز للسياسة المؤثرة في واقع الوطن وإلا حدث التعارض والتناقض وساد التعصب وحدثت الفتن والحروب الأهلية وهذا ما عرفته بعض الدول العربية بكل أسف ومرارة (لبنان) لأن إيديولوجية الفرد العربي ليست نابعة من ماهيته وفي هذا يقول "مالك بن نبي":<< إن الإيديولوجية التي لا تتضمن كأفكار موجهة إلا مصالح عاجلة فإنها وإن كانت محترمة سوف لا تفتح الطريق لغير سياسة قصيرة محدودة المدى على قدر الشعارات التي دفعتها >> (2)

بمعنى هذه السياسة غير مبنية على دراسة علمية صحيحة للواقع المعيش تصبح سياسة فاشلة و عليه فالإيديولوجية تقتضي تجانسا و تطابقا و وحدة ضرورية لا انفصام بين عمل الدولة و عمل الفرد لتحقيق منجزاتها التاريخية عن طريق العنصر الأخلاقي .

---

(1) مالك بن نبي : بين الرشاد و التيه ت / عمر كامل مسقاوي دار الفكر 1976 ص71

(2) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص73

و كما يقول مالك " بن نبي" : << و التاريخ منذ عهد الفيران في روما إلى شهداء بدر إلى أبطال ستالين غراد , ليس إلا شرحا لهذه الحقيقة >> (1)

و يعني بذلك أن الإيديولوجية طالما أنها نسق من الأفكار و هذا البناء الفكري0 و الايديولوجي للإنسان المسلم يستمد في الحقيقة من الدين و التراث و قد سبق و أن أشرنا إلى أهمية العامل الديني في توحيد شبكة العلاقات الاجتماعية و توطيدها .

و هذا ما نلاحظه أيضا في تاريخ الحركات التحررية في الوطن العربي و من بينها الجزائر و في هذا يقول " مالك بن نبي" :

<< لقد كان الإسلام الحصن التي فشلت تحت أسواره جميع المحاولات التي استهدفت سلب الشعب الجزائري شخصيته على مدى قرن من الزمان كما كان الحافز الإيديولوجي الرئيسي الذي دعم جهده البطولي خلال الثورة لكي نلخص هذه الكلمات لا بد أن نقول علينا العودة إلى الأصول و المنابع التي منها نبع تاريخنا >> (2)

و عليه فإن بناء الفرد فكريا و إيديولوجيا في مجتمعاتنا يقتضي منا العودة إلى أن ننهل من مصادر و منابع ثقافتنا و معتقداتنا و تراثنا .وهذا يعني أن هناك تصور نموذجي لمجتمعاتنا ينبغي تجسيده على أرض الواقع وهنا أتذكر ما قالته "عائشة" رضي الله عنها , عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما معناه : (لقد كان القرآن يمشي على الأرض)

إن مشكلة الإيديولوجية هي ذاك الواقع السياسي مع التجاوب الاجتماعي في نطاق جو ثقافي معين لأنها هي التي:

* تترجم نفسية مجتمع ما .
* الإيديولوجيا هي المعبر الوحيد عن ظاهر و باطن مجتمع ما .
* الإيديولوجيا هي عملية شد للأفكار و الأشخاص و الأشياء

إذن لكل مجتمع إيديولوجيته الخاصة به فمفهومية المجتمع الغربي المعاصر مثلا نجدها في وجه كوجه" وسطن تشرشل" الذي لقب بالثعلب الماكر إبان الحرب العالمية الثانية

و نجدها في المجتمع الإسلامي . متجسدة في فجر الإسلام عند" بلال الحبشي "

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 73

(2) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص74

و هنا أستحضر ما قاله الشاعر الجزائري " محمد العيد آل خليفة " عنه أي عن بلال الحبشي و هو يتعرض للتعذيب من طرف " أمية بن خلف الجمحي" وقت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يضع الصخرة العظيمة على صدره .

أحد أحد　　　　أحد أحد
سبحانه　　　　هو الصمد
لا والد　　　　و لا ولد
هو الملا　　　　ذ المعتمد
هو الحمى　　　　هو السند
أحد أحد　　　　أحد أحد
مهيمن　　　　على الأمد
كل الورى　　　　له سجد
منه الهدى　　　　منه المدد
له العلا　　　　على الأبد

و كذلك قول الخنساء :

إذا عز منك الود فالكل هين　　　　و كل الذي فوق التراب تراب

كما أن التاريخ يثبت بلا شك ما ذهبنا إليه سابقا , أين استطاعت الجيوش العربية في حرب رمضان 1973 تحطيم أسطورة خط " بر ليف "في ظرف (06 ساعات) ولولا المراوغات السياسية للولايات المتحدة الأمريكية بقيادة وزير خارجيتها "هنري كسنجر" آنذاك وتواطؤ بعض القادة العرب لوصل الجندي العربي إلى مشارف المسجد الأقصى .
لكن أحيانا أرى بعيني واسمع بأذني كيف تغير المفاهيم وتحرف الإيديولوجيات ويزور التاريخ حتى يخيل للمرء أن جيل اليوم والأجيال القادمة معذورة عندما تضل السبيل وتتبع الأباطيل .

يقول الشيخ "محمد الغزالي" في كتابه "الحق المر"

<< ألا يطول عجب الإنسان عندما يسمع ساسة الغرب الكبار يقولون للعالم أجمع : نحن نرفض الإرهاب الدولي وسوف نقاومه بكل سلاح يقولون ذلك للفدائيين الذين يدافعون عن أرضهم وعرضهم والذين يقاومون بالسلاح التافه أفتك أسلحة العالم >>

كما لا أزال أتذكر قصة الطائرة الأمريكية المختطفة . والحديث دائما للشيخ "محمد الغزالي" وأصل القصة معروف :

فإن اليهود عندما إنسحبوا من لبنان إختطفوا نحو سبعمائة شباب من المسلمين وحبسوهم في سجن "عتليت" . وصرخ الأهل والأصدقاء يطلبون إخلاء سبيل المخطوفين فما رق لصراخهم أحدا أنهم سيقضون أعمارهم في ظلام السجون وغضب نفر من أولي النجدة والحمية واختطفوا الطائرة الأمريكية وأعلنوا أنهم لن يدعوا من فيها حتى يتحرر الاسارى من سجن "عتليت" وراقبت ما يقع لأدرس أحوال الناس . كانت الشتائم تنهال على رؤوس الإرهابيين الخاطفين وتنعتهم بأقبح الأوصاف وكان غضب الولايات المتحدة الأمريكية يغلي ويفور والرئيس الأمريكي "ريجان" يرغي ويزبد وقال الخاطفون : أفرجوا عن إخواننا نفر جوا عن إخوانكم ... الخ .

وتراجع الجبناء وسكت الخطباء وخرج من سجن "عتليت" الاحرارالذين تكسرت قيودهم وعادت الطائرة إلى أصحابها ...!!

إذن حينما يبنى الفرد فكريا وإيديولوجيا بناءا صحيحا سليما نابعا من معتقداته وتاريخه دون تزوير وتحريف يصنع مجده , ويشيد حضارته , ويتبوأ مقعدا محترما يعتز به الأصدقاء ويخشوه الأعداء .

وختام القول أنه علينا اليوم بناء إنسان ومن ثمة جيل جديد فكريا وإيديولوجيا يعوّل فيه على نفسه ,متجاوزا مرحلة الإعتماد على غيره والإتكال على الآخرين , والنقل الآلي لمفاهيمهم وإيديولوجياتهم .

إنه ورغم ما قيل عنا لسنا شعبا بدائيا أو مستعدا لأن نقبل كل شيء, بل ننتمي إلى حضارة عريقة أصيلة ثرية بتراثها العقائدي الأخلاقي والاجتماعي والثقافي .

إن مشكلتنا هو أن لنا حضارة ما زالت مخزونة كثروتنا البترولية بدون استغلال وبإمكاننا

إذا ما تفطنا لكنوزنا الثقافية بأنواعها والتي تمثل بصدق إيديولوجيتنا أن نستخرج منها مناهج خاصة بنا وقادرة على خدمة مجتمعاتنا والنهوض بها نهضة ثقافية في الميادين الإجتماعية بأنواعها لاتقل عن تراث غيرنا من وارثي الحضارات .

ولن يتأتى هذا إلا من خلال إيديولوجية عربية أصيلة وعلمية مستقيمة تعمل على بناء الفرد بناءا يواكب العولمة ويأخذ مشعل الحضارة الإنسانية من جديد وليس ذلك بالمستحيل مصداقا للحديث الشريف :

(لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) .

الفاعلية

مشاكلنا عديدة ومتداخلة ومعقدة منها ما هو إقتصادي ,ومنها ما هو إجتماعي ,ومنها ماهو سياسي ,ولتغلب عليها يجب البحث عن مختلف الأسباب والعوامل التي أدت بنا إلى ما نحن عليه الآن . ومن هذه الأسباب والعوامل منها ماهو ذاتي وما هو موضوعي وعليه يمكن صياغة وطرح المشكل على النحو التالي : هل هذه العوامل موجودة في ذ واتنا أم خارجية عنا ؟

هل القضية قضية أدوات وإمكانيات ؟ أم قضية كيفية بناء وتكوين الإنسان ؟ وبطريقة أخرى هل القضية تكمن في العوامل الخارجية أم في العوامل الباطنية ؟ أي في نفسية الإنسان ؟

إن الإنسان كما يرى "مالك بن نبي " إذا تحرك تحرك المجتمع كله وإذا سكن سكن المجتمع كله وحتى التاريخ يسكن وهذا من خلال استقراء ه لتاريخ .

والمقصود بذلك أن حركية التاريخ بل وحتى الحياة تتوقف على الإنسان وهذا يضعنا أمام مشكلة سماها "مالك بن نبي" (بالفعالية) أي فعالية الإنسان المسلم في تغيير مجرى حياته وحياة مجتمعاته وتغيير حتى مجرى الإنسانية قاطبة .

ولكن ماهي هذه الفعالية ؟ وماهي شروطها ؟

في البداية حري وجدير بنا أن نقوم بتعريف "معامل الفعالية

وكيف يراه "مالك بن نبي " ضروريا في تغيير الحياة الاجتماعية ؟

إن معامل الفعالية يعني بكل بساطة عند "مالك بن نبي" ذلك العنصر المشترك بين مجموع العوامل(الطبيعية والميتافيزيقية)أي أنه العنصر الذي يساهم إلى حد ما في بعث الحياة النفسية في الحركة مهما كان شكل هذه الحركة . وتاريخ مجتمع من المجتمعات مهما كان في بدائيته هو تجاوب هذا المجتمع مع هذا الظرف الاستثنائي أو ذاك والذي يأتي كنتيجة تلقائية لعمل جماعة ما في التاريخ وهو نفسه ما حصل للمجتمع القبلي الجاهلي وقت أن كان الرسول صلى الله عليه وسلم يهجر مكة كل عام ليقضي شهر رمضان في غار حراء وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة , في رأس جبل من الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل , ويبدأ السكون

الشامل حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد , ويصقل قلبه ,وينقي روحه , ويقترب من الحق جهده , ويبتعد عن الباطل وسعه , حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية , إلى أن إتصل بالملإ الأعلى . ومن قبله شهد بطن الصحراء أخا لمحمد عليه الصلاة والسلام يخرج من مصر فارا مستوحشا , ويجتاز القفار متلمسا الأمن والسكينة والهدى لنفسه ولقومه , فيرقب له من شاطىء الوادي الأيمن نار مؤنسة , وإذا بالنداء الأقدس يغمر مسامعه ويتحلل مشاعره : << إنني أنا الله لا اله إلا أنا فاعبدني , وأقم الصلاة لذكري>>*إن شعلة من هذه كانت نورا ينبسط بين يدي وحي مبارك يسطع على القلب وبمحمد صلى الله عليه وسلم يصغي في دهشة وانبهار إلى صوت الملك يقول له :" اقرا" فيجيب مستفسرا :"ما أنا بقارىء" ويتكرر الطلب والرد إلى ان يقال له :

<< اقرا باسم ربك الذي خلق , خلق الإنسان من علق ,إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم

علم الإنسان ما لم يعلم >> *وهذا يعني أن النفس الإنسانية زودت بأهم عامل كسلاح يعمل على تغيير الأوضاع الاجتماعية.(1)

ولكن ورغم توفر مقومات وعوامل التغيير كما ذكرنا في مختلف انواع التغيير في الفصل الثاني إلا أن بعض الشعوب لم تفلح في تغيير أوضاعها وبقيت رهينة الرداءة والدناءة تابعة للغير مستلبة الشخصية . فما سبب ذلك ؟

يرى "مالك بن نبي" أن هناك عامل أساسي بل ورئيسي يتمثل في ما يسميه هو أي "بن نبي"ب "معامل الفعالية" فما هو معامل الفعالية يا ترى؟

إن التغيير الاجتماعي في نظره لا يحدث إلا إذا اجتمع القول والفعل معا . والدليل على ذلك حينما التقى العلم بالدين حدث التغيير الاجتماعي كما هو الحال في المجتمع العربي حينما انتقل من العهد الجاهلي إلى العهد الإسلامي إذ نجد ذلك يتجسد بشكل واضح للعيان في شخصية " بلال الحبشي" أو في التجربتين الألمانية واليابانية في العصر المعاصر .

وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي :

---

*: طه : الآية 14

*: سورة العلق

(1) الشيخ محمد الغزالي : فقه السيرة مكتبة رحاب ساحة بور سعيد الجزائر ص85

لماذا كان الإنسان المسلم في المراحل التاريخية السابقة فعالا وأصبح اليوم غير فعال مع العلم أن كل إمكانيات التغيير والنهضة لبناء صرح حضارة متوفرة ؟

ولماذا أصبح الإنسان الجزائري مثلا في الوقت الحالي يعيش الانفصام بين فكرته الروحية الإسلامية وبين سلوكه ؟ بين ما يتلقاه من أفكار ومبادىء وتعاليم في المسجد وبين ماهو عليه في الوقع ؟

إن كل من الضعف والقوة حالتان طبيعيتان . فحالة القوة كما يرى "مالك بن نبي" تطرأ على النفس عندما يكون الضمير الإنساني قد استطاع أن يتحدى في المجال الأخلاقي كل قوة موازنة له , وأن تحرى أي عارض وأي حالة طبيعية تتماشى معها استجابة نفسية عن الدوافع التي تميز النفس الإنسانية . وهي بالتالي استجابة رضى عن الضمير من النفس فتشتد عند الإنسان وتزداد نفسه قوة ونشاطا .

أم في الحالة الثانية التي يضعف فيها الضمير فنلاحظ انه يضعف نتيجة لضعف يصيب القوى النفسية , بمعنى ان الدوافع النفسية تصبح مشلولة مما ينجم عنها ضعف في كل شيء حتى أخلاقيا فان الضمير يكون أيضا ضعيفا وهكذا يكون التحدي بمقدار ضعف هذه الاستجابة .وبطريقة أخرى لا تكون هناك استجابة بل مجرد فعل آلي لا يتولد عنه شيء وفي هذا يقول "

"مالك بن نبي "<< فإن تطوّر الجماعة يؤدي بها إلى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية وإما أن يسوقها على عكس ذلك إلى وضع متخلف >> . (1)

ويضرب لنا "مالك بن نبي "مثالين عن هذه الحالة أي حالة قوة التحدي , وقوة الاستجابة

المثال الأول الذي يصوغه لنا هو :

إن رجلا كالشيخ الإمام " عبد الحميد إبن باديس" لم تكن لتنجيه يده الضعيفة أمام محاولة الاغتيال التي قام بها الفرنسيون ضده لولا اشتداد قوة الروح أو ما يسمى بقوة الفعالية حيث

لوحظ أن الزعيم الروحي للثورة الجزائرية آنذاك ولحركة الإصلاح قد تعرض لهذه المحاولة أي محاولة الاغتيال التي كان من ورائها الاستعمار الفرنسي , لكنه نجا بأعجوبة منها .

---

(1) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 16

فلنتساءل :

كيف كان لتلك اليد الضعيفة لرجل أي ل"ابن باديس " أن ترد سكينا في مستوى القوة التي هي اكبر منها .

قد يبدو طبعا أن القصة التي أوردناها فيها شيء من الخيال والطوباوية , حتى أنها قد تتهم بأنها أسطورة والحقيقة أنها لو كانت يد غير يد "ابن باديس" في تلك اللحظة لما كانت لترد الغدر الفرنسي والأمثلة على ذلك كثيرة فكم من يد جزائرية غدرت بها يد الاستعمار الفرنسي منذ 1830الى 1962 .

نفس المثال أو الواقعة التي توضح لنا معامل الفعالية يستمد من الداعية " زينب الغزالي" التي ذكرت في كتابها :"الداعية زينب الغزالي مسيرة وجهاد وحديث من الذكريات" وعلى وجه التحديد في الصفحة (19) حينما طرح عليها السؤال التالي :

ما أهم المواقف في وقت الأزمة التي تعرضت لها الحاجة " زينب" وخاصة في فترة "جمال عبد الناصر"؟

فأجابت :

ذات يوم طلب مني جمال عبد الناصر مقابلته فرفضت , فكانت بداية العداوة لأنني قلت للرسول الذي أرسله لي لمقابلته : أنا لا أصافح يدا تلوثت بدماء الشهيد "عبد القادر عودة"...فلما دخلت السجن , قالوا :إن التعذيب كان يعرض عليه , وقد كان يشاهدني وأنا أعذب وألقى التعذيب وستجد الإجابة عن هذا في كتاب (من حياتي) .

وهذا دليل على فعالية المرآة المسلمة أمام جبروت الطغاة .ليس هذا وحسب بل إنك قد تجد أنها أي السيدة "زينب" تنام أو تسكن زنزانة مع كلاب الطواغيت....(1)

والمثال الثاني الذي يأخذ به " مالك بن نبي" هو مثال ذلك الأمر الرباني ل"يحي" عليه السلام في قوله تعالى :<< يا يحي خذ الكتاب بقوة >> *

وهذا يعني أن كلمة "خذ الكتاب بقوة "تعني أنه على "يحي"عليه السلام أن يأخذ الكتاب بنوع من الفعالية النفسية الروحية . وبعبارة أخرى على " يحي" أن يكون كفئا للأخذ

---

(1) زينب الغزالي : مسيرة وجهاد و حديث من الذكريات من خلال كتاباتها دار الحديقة للنشر 1989 ص 19

* : مريم : الآية 12 .

بالكتاب على المستوى النفسي ,لأنه وحسب ماهو معروف أن قوة الإنسان تكمن بداخله وليس بخارجه . ويمكن أن نأخذ أيضا مثالا أخر يوضح المسالة بشكل جلي يتمثل في الثورة الجزائرية كدليل قاطع ونموذج ساطع على ما أوردناه سلفا .

إذا ورغم أن ميزان القوة المادية كان لصالح الاستعمار الفرنسي عدة وعدادا "الحلف الأطلسي" إلا أن فعالية المجاهد الجزائري أو الفدائي أو المسبل ...الخ كانت أقوى بكثير من الفرنسي لأنه مؤمن بقداسة قضيته قلبا وقالبا .

وعندما دقت ساعة ميلاد المجتمع الجزائري الذي طالما غاب عن الساحة السياسية والدولية والتاريخية , وأن ساعة الميلاد هذه تدق حينما تكون الجماعة تتصف ب"الفعالية" وقوة نفسيتها في الدفاع عن الإنسان وكرامته وشرفه من جهة ومن جهة أخرى عندما يريد المجتمع أن يعيد بناء تاريخه وحضارته وفي هذا يقول "مالك بن نبي" :

<< فإن كل جماعة لا تتطور , ولا يعتريها تغيير في حدود الزمن , تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة (مجتمع) >>(1)

إن الفاعلية حسب " مالك بن نبي"تشترط ثلاث مراحل :

- إنها تشترط الطاقةLénergie وهي البذرة الدينية ثم تشترط الوسط الذي يعتبر أهم عامل يساعدها على النموDévelopment ثم تشترط الفطرة . ونأتي الآن لتحليل هذه العناصر الثلاث فالعنصر الأول الذي هو البذرة الدينية لا يمكنه أن يقوم وحده . انه يتطلب الشروط الأولى .وبعبارة أخرى إنه يتطلب شرط الوسط وشرط الفطرة و كليهما يسيران معا ولايمكن فصل واحد عن الأخر . إن معامل الفعالية يقوم على أساس البذرة الدينية لأن هذه الأخيرة تعمل عمل الطاقة للمحرك , إنها تزوده أي هي التي تزود هذا المحرك " المجتمع التاريخي "لأن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية أي أنها تعلمه كيف يتحضر وفي هذا يقول "مالك بن نبي":

<<الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء
هذا التغيير>> (2)

---

(1) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 14

(2) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص 15

وكل عدول بها نحو شكل من أشكال الرهبنة أو الجحود إنما يجعل هذا المحرك الذي اشرناإليه سابقا يتوقف عن السير عندما تنتهي أيضا منه آخر قطرة من البنزين . وهي الحالة الثانية أو عندما توضع طاقة أخرى غير البنزين في المحرك كالطاقة الشمسية أو الكهربائية أو ... .

وأما العنصر الثاني فهو عامل الوسط . إن مجتمعا كالمجتمع الذي قام بعد عصر الانحطاط ماكان عليه ليقوم من نومه ولو آتينا له بحالة كحالة غار حراء .

وأما الشرط الثالث فهو الطفرة ونقصد بها أن مجتمع الفطرة يكون أكثر تجاوبا مع الفاعلية من المجتمع السياسي لأن كل شيء يسمى سياسة آنذاك يصبح فلسفة . وفي هذا يقول المفكر "مالك بن نبي" : << والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وانشط الحركات وأقوم التوجيهات >> (1)

<u>الوعد والوعيد:</u> يعرف "مالك بن نبي" الوعيد بأنه :

هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثر . أما الوعد فهو الحد الأعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا , وذلك حين تطغى قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحها الإنسان .والمتأمل لتعريف " مالك بن نبي " يدرك أن :

الوعيد هو أية محاولة تكون موجهة لرد الإنسان إلى غايته ومثله في هذا الكون , تكون ناجحة في حالة ما إذا كان الجهد المبذول من طرف القوة الروحية قويا وأعني با لقوة الروحية الدوافع النفسية في حالتها الفطرية وبالتالي يتمكن الإنسان حينئذ من أن يقوم بعمله مهما كان هذا العمل .أما الوعد فيتمثل في الجهد المبذول من طرف الإنسان تجاه أي عمل يكون ضربا من المستحيل ويصبح غير مثمر لأنه يحفز الدوافع النفسية في الذات الإنسانية وعلى هذا النحو يصبح الجهد المبذول لا تأثير له .

وهذا يعني أن فكرة الوعد والوعيد شرطان ضروريان كي تقوم النفس الإنسانية بوظيفتها في الجد والنشاط أو العكس تتخبط في اليأس والقنوط وهو ما يسميه الوجوديون بالتيه أو الحيرة والقلق و الكآبة أو كما يسميه البعض بالعبثية لان الحياة في رأيهم عبث .

---

(1) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص32

وكذلك نجد المتصوفة حينما اقروا بان الخوف والهلع من اليوم الآخر يجعل النشاط الدنيوي عديم الفعالية ولا يخدم أية غاية سوى الرهبنة وبذلك فخطوة الصوفية هذه غير واضحة . فهم بطريقة أو بأخرى يسيئون سلبا إلى تحرك المجتمع , والوجوديون يهضمون حق المجتمع إيجابا . أي أن الحياة النفسية حينما توضع بين حدين . ويضرب لنا "مالك بن نبي" أمثلة عن حالة الوعد والوعيد بتلك المراة الزانية حيث ألحت على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يقيم الحد عليها (1)

وحسب ما يشير إليه "مالك بن نبي"في كتابه "تأملات" << فاليد تأخذ ببطش في حالة التوتر وهي حالة نفهمها في أية : " خذ الكتاب بقوة>>

إذا الوعد والوعيد طرفان يحققان ما يسمى باللإفراط واللاتفريط في الأعمال والواجبات أي وضع النفس الإنسانية في الشرط الوحيد الذي يخول لها الإقلاع .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في العديد من المواضع مثل قوله تعالى << ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك >> *

ونافلة القول أن هذه الفكرة التي اعتبرها "مالك بن نبي" كشرط أساسي للإقلاع في الحركة التاريخية ليست جديدة وإنما استمدها من الفكر الإسلامي على أيام المعتزلة حين جعلوها من أفكارهم الخمس . لقد سبق أن أشرنا في التغيير الاقتصادي إلى أن القضية ليست قضية إمكانيات , وليست قضية فقر أو غنى , ولكنها قضية تتصل بالإنسان مباشرة كمواطن أمام المشكلات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية وكيفية مواقفه , ومختلف ردود أفعاله وقدرته على مواجهتها أو التغلب عليها وبكلمة واحدة فالقضية قضية فعالية الإنسان في التاريخ . فما هي شروط هذه الفعالية ؟

إن استقراء التاريخ يبين لنا بأنه ليس مجرد حوادث تتعاقب دون ما ربط جدلي بينها وهذه النظرة تؤدي إلى نتائج معينة ليست هي التي تنتج عن نظرتنا إليه حينما نعتبره سيرا مطردا تترتب فيه الحوادث ترتيبا منطقيا كما تترتب عن الأسباب مسبباتها .

---

(1) مالك بن نبي : تأملات ت/عمر كامل مسقاوي ط/4 دار الفكر دمشق 1979 ص35

* القصص : الآية 77

إذن هناك نظرة أولى وهي نظرة إستسلام للواقع لأنه لا دخل ليد الإنسان في صناعة تاريخه وهي بذلك تشبه حكم القضاء والقدر لأننا لا نعرف أسبابها ولا حتى ما يترتب عنها من نتائج .

أما النظرة الثانية فهي المتمثلة في معرفة الأسباب التاريخية كلها والتي تصدر عن سلوكنا وتنبع من أنفسنا , ومن مواقفنا حيال الأشياء أعني إرادتنا في تغيير الأشياء تغييرا للغاية التي رسمناها كما رسمها القرآن الكريم في قوله تعالى : << كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله >>*

والمعروف في أعم صوره والمنكر في أشمل معانيه يكونان جوهر الأحداث التي تواجهنا يوميا كما يكونان لب التاريخ . ويضرب "مالك بن نبي" أمثلة حية لتوضيح معامل الفعالية .فالمثال الأول يتجسد في ذلك الطفل الصغير الذي يقود الجمل كيفما شاء يمينا ويسارا بعصاه أو بدون عصا .فالجمل القوي يفقد بطبعه ومن فضل الله علينا نحن الآدميين شيئا بسيطا هو الإرادة وأما الصبي الضعيف فانه قوي بالإرادة التي يمتاز بها جنسه على غيره من الأجناس والمثال الثاني صورة الشعب الهندي والشعب الإنجليزي في القرن التاسع عشر نرى أن الشعب الإنجليزي ورغم قلة عدده تصرف عن الشعب الهندي رغم كثافة وكثرة عدده إذا العبرة في الكيف وليس في الكم وهذا دليل آخر على ما يحدثه عامل الفعالية في تغير الأوضاع والأشياء وصناعة التاريخ (1)

وكان القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك في قوله تعالى : << إن إبراهيم كان امة >> *

اذاحينما تقوى نفسية الإنسان وإرادته ويصبح كائنا فعالا يغير الحوادث والأشياء وبالتالي يغير مجرى التاريخ . ولعل التاريخ المعاصر لألمانيا واليابان يثبت لنا ذلك .

فلما لا نفعل ما فعلته هذه الشعوب مع العلم أن إمكانياتها ضئيلة مقارنة مع إمكانياتنا ؟

وبذلك ندخل التاريخ من بابه الواسع , ونثبت وجودنا وتصبح لنا القيادة والريادة لان الشروط الطبيعية والبشرية والروحية متوفرة وموجودة .إذا ماذا بقي علينا فعله؟

---

* آل عمران : الآية 110

(1) مالك بن نبي : تأملات ص128

* النحل : الآية 120

في اعتقادي فإن الذي بقي هو :
من يحرك هذا الإنسان الجزائري المسلم ويجعل مختلف القدرات والطاقات الكامنة تتفتق وتنفجر وتصبح فعالة .
ذاك هو التحدي الذي ينتظر الإنسان الجزائري والعربي والمسلم الحالي في ظل العولمة
و قد صدق " مالك بن نبي " حين قال:
<< فالجماعة الإنسانية لا تكسب صفة المجتمع إلا عندما تشرع في الحركة , أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها , وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة إنبثاق حضارة معينة>> (1) هكذا إذا نجد أن المفكر الجزائري الكبير "مالك بن نبي "لا يؤمن بذلك الدين الكاذب الذي كان سائدا في الأوساط الاجتماعية المختلفة والذي هو ملكي عند الباشاوات وأسيادهم , وقبلي بدوي عند الأمير العربي البربري , كما لا يشترط على الإنسان أن يصنع المعجزات وإنما قام بتصحيح كثير من المفاهيم التي أغرقت في بحر من الجهل واللامبالاة والفوضى والشكلية . إنه لم يحدد الفكر الديني أو الفكر العربي فحسب بل قام بتحديد العمل الديني بالمعنى الواسع للكلمة ونفهم من كلمة عمل ديني : الإصلاح الإجتماعي والسياسي و الإقتصادي والعقائدي . إنه صاحب الروح السوسيولوجية الجديدة المتحررة من كل مذهب إلا مذهب نشدان الحقيقة .(2)

---

(1) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 16

(2) د/ عبد اللطيف عبادة : صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي دار الشهاب للطباعة و النشر باتنة الجزائر ص 24, 25

ولذلك نجده قد جسدها أي أن "مالك بن نبي" جسدا لفعالية كالتالي :

1- فكرة كومنويلث إسلامي :

وهذه الدراسة العملية العميقة تريد أن تبين الإمكانيات والوسائل التي تمكن العالم الإسلامي من الاتحاد والاكتفاء الذاتي وبالتالي الاستقلال في شتى مظاهره .

2- الفكرة الافروآسيوية :

وهذه الدراسة تهدف إلى النهوض بالعالم الثالث دون أن ننسى بقية الشروط الأخرى والتي يمكن أن تتخذ منطلقا لكل تغيير إجتماعي .

كما ركز على الفرد المسلم والذي له دور كبير في تهيئة الجو للنهوض وبناء صرح حضارة وقد نستشف ذلك من خلال كتيبه الصغير بعنوان " دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين "إذ أشار فيه إلى إرادة التغيير والصعود وتشييد صرح حضارة . وكل هذا لا يتم إلا بالقوة وهذه القوة هي القوة الروحية المستمدة من الدين وفي هذا كان "مالك بن نبي" يرى :

<< بأن الإسلام بما ينطوي عليه من قوة روحية يشكل بالنسبة للذين يتمسكون به درعا من أن تحطمهم الأيام أو يذوبوا في بوتقة الاستعمار.>> (1)

ونافلة القول أن القوة التي تهم المفكر الجزائري الكبير "مالك بن نبي"هي القوة الروحية النابعة من الدين والمتمثلة في إرادة التغيير والفعالية والاتكال على الذات والصمود في وجه الغريزة .

أما القوة المادية فهي متفرعة عنها أي لا قيمة لها ولا معنى لها إذا لم توجد الأولى .

---

(1) د/ عبد اللطيف عبادة:المرجع السابق نفسه ص 121

البناء الحضاري:

حل مشكلة التوجيه الثقافي :

<<إن الثقافة , في أصل اللغة الفرنسية هي قبل كل شيء العناية بالأرض أي بفلاحتها وزراعتها >> ويفهم من هذا أن الأرض من غير ما يضاف إليها من نشاط إنساني , لاتنتج شيئا يستجيب لمطالب الإنسان .فالثقافة إذن هي ما يضاف إلى الطبيعة الجغرافية من نباتات أو إنها تتمثل في منتجات الأرض . وإذا نحن نظرنا نظرة الأنثروبولوجيين قلنا بأن الثقافة وما تنطوي عليه من لغة وتقنية ومؤسسات اجتماعية كثيرة تبقى مدة طويلة بعد موت الأفراد اللذين حصلوا عليها << إن الأفراد يذهبون ويجيئون كما يقول " جوزيف فيختر " ولكن الثقافة تبقى مستقرة >> (1) . كأن الثقافة كل مستقل بنفسه له كيانه وحتميته . ولو رجعنا مرة أخرى إلى الاستعمال المشترك لدى الفرنسيين لوجدنا أن الثقافة ليست إمتدادا إضافيا للأرض فحسب . بل هي العناية بالبدن والفكر والروح والفن ... الخ . إذن الثقافة ظاهرة تخص الإنسان . لكن للثقافة مفهوما شائعا بين الناس هو أن المثقف يعرف أمورا كثيرة من غير أن يكون متعمقا في واحد منها . فالثقافة إذن في هذا السياق هي سعة الإطلاع وشموليته وتنوعه من غير عمق وتخصص . وهذا المفهوم العام للثقافة لا نجده واحدا عند الجميع بل هو يختلف باختلاف ثقافة كل واحد من الناس . فالواحد منا يتخذ نفسه مقياسا لغيره وبالتالي يجعل من ثقافته إطارا لتحديد مفهوم الثقافة في علمه الخاص به بحيث يعتبر الشخص الواحد مثقفا عند هذا وغير مثقف عند ذاك , فلا يكون لدينا مفهوما واحدا للثقافة يتفق عليها جميع الناس , بل يكون لدينا عددا من المفاهيم مساويا لعدد الناس , أو لعدد كبير من الفئات على الأقل ومن هنا يتبين أن المفهوم الشائع للثقافة

ناتج عن تصورات ذاتية لا يعبر عن حقيقة الثقافة التي ينبغي أن لا تتغير بتغير من يتصورها .(2) أما معجم الموسوعة الفلسفية التي وضعتها لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيتيين فقد عرفت الثقافة بقولها : << كل القيم المادية والروحية ... ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ

---

(1) جمال الدين بوقلي حسن : قضايا فلسفية 1986 ص17

(2) محمود يعقوبي و آخرون: الفلسفة لطلاب البكالوريا المعهد التربوي الوطني ج 1 1988 ص5 - 6

وبمعنى أكثر تحديدا , فانه من المعتاد التمييز بين الثقافة المادية (أي الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج وغير ذلك من الثروات المادية)والثقافة الروحية (أي المنجزات في مجال العلم والفن والأدب والفلسفة والأخلاق والتربية ...الخ . والثقافة ظاهرة تاريخية و يتحدد تطورها بتتابع النظم الاقتصادية الاجتماعية . وترى الماركسية اللينينية بان إنتاج السلع المادية هو أساس ومصدر الثقافة الروحية(1) ودون الغوص في المفاهيم اللغوية الكثيرة لمصطلح (الثقافة) نعود إلى مفهوم الثقافة عند "مالك بن نبي" و الذي سبق و أن أشرنا إليه في التغيير الثقافي و المتمثلة في << مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه , و الثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه و شخصيته>>(2)

و هذا يعني بأن الثقافة ظاهرة اجتماعية إذ يتلقاها الطفل منذ ولادته إلى أن يفارق الوجود أي أن الثقافة عملية مكتسبة .

و كل ثقافة بما تحمله من خصائص ذاتية و صفات تمثل ماهيتها تتحلى بها و تميزه عن غيرها من الثقافات الأخرى ليست معزولة عن ما يسمى الآن بالصراع الثقافي والحضاري

و خاصة في ظل العولمة الرقمية الرهيبة .

و أتأسف هنا في المجال الثقافي لأقول بأن الشعوب الإسلامية حتى يومنا هذا لم تبدأ نهضة صحيحة , و إن مظاهر التقدم التي نراها أو نسمع عنها هي امتداد لنشاط القوى الكبرى في العالم أكثر مما هي تطلع المتأخرين للتقدم...

إلى عهد قريب كان الغرب الصليبي يصطنع شعوبا شتى لخدمة مآربه و يمدها بكثير من عونه المادي و قليل من تقدمه الحضاري و الشرق الشيوعي ينافسه في ذلك الميدان , ويحاول الاستفادة من أخطائه , أو يحاول ميراثه إذا انتهى في مكان ما ...

---

(1) الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء و الاكادميين السوفياتيين ص 153- 154

(2) مالك بن نبي: شروط النهضة ت/ عبد الصبور شاهين ص 125

لكن اليوم و في ظل الأحادية القطبية ووسائل الإعلام و الاتصال الجد راقية صار العالم عبارة عن قرية صغيرة و كما يقال لا مكان و لا بقاء للضعفاء خاصة أولئك الذين تنكروا لذواتهم و يتشبثون تارة بالغرب و تارة أخرى بالشرق ظاهرا و باطنا , و صاروا لا يدركون طريقهم تائهين ضائعين ممزقين مستلبي الشخصية , وليس هناك غاية يعملون على تحقيقها. لذا رأى المفكر الجزائري " مالك بن نبي":

أن أول عمل يقوم به هو التالي: << إنه يجب علينا بادئ الأمر تصفية عاداتنا و تقاليدنا , و إطارنا الخلقي و الصناعي مما فيه من عوامل قتالة لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية واعية إلى الحياة و إن هذه التصفية لا تأتي إلا بفكر جديد يحطم ذاك الوضع الموروث عن فترة تدهور و أصبح يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة>> (1)

لقد ظهرت مصطلحات ومفاهيم خلال العشرية الأخيرة لعل أبرزها النظام العالمي الجديد وحوار الحضارات والتعاون جنوب جنوب وأخيرا العولمة خاصة بعد إنهيار الشيوعية

وسقوط جدار برلين , ومأساة حرب الخليج , وحرب البوسنة , وتنامي التيار الإسلامي بشقيه السياسي والمسلح من جهة ومحاولة الولايات المتحدة الأمريكية فرض نظام عالمي جديد . مما نشب عن ذلك مواجهة الثقافات لبعضها البعض . وكانت طبيعة هذه المواجهة تبدو في صورتين :

1- أحيانا ايجابية

2- أحيانا أخرى سلبية

وعليه يمكن صياغة الأشكال وطرحه على النحو التالي :

ما طبيعة الصراع الثقافي ؟ (الحضاري) حاليا ؟ اهو صراع حوار ؟ أم هو صراع اصطدام ؟ هل الاتصال بين الثقافة المحلية والثقافات العالمية يسيء إلى خصوصية تلك الثقافة ؟ ألا يعود عليها بالإيجاب ؟ ما حقيقة الأمر يا ترى ؟

---

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ص109

مبدئيا يمكن القول أن التفاعل والاحتكاك بين الثقافة المحلية والثقافات العالمية الأخرى مسألة حتمية وضرورية لامناص منها . فإما أن تركب تلك الثقافة المحلية قطار ثقافة العولمة وتتفاعل معها تبعا لإمكانياتها وخصائصها وتتكيف معها أو تبقى جامدة ثابتة ساكنة لا تحرك ساكنا يتجاوزها الزمن وتبقى في مؤخرة التاريخ تابعة لثقافات الأخرى .

لقد حاول بعض المبشرين بفلسفة النظام الثقافي الجديد إختبار مدى مصداقية أفكارهم وإثارة النقاش حولها . ومن هؤلاء الباحثين تبرز بعض الأسماء نذكر منهم " فرانسيس فوكو ياما " و" صامويل هتنكتن" و" بريجنسكي " و " جيل كيبيل "وغيرهم .(1)

ومن باب الإنصاف والموضوعية نقول أن فيه صنف من هؤلاء المفكرين منصفون في أفكارهم من الحضارة الإسلامية " كفرا نسوا برغات " و " وجون سيوزيتو " و "جيل كيبيل " وغيرهم . لكن فيه صنف آخر من يتصف بالذاتية وبالروح العدوانية لثقافات غيره ومن هؤلاء المفكرين نجد مثلا الأمريكي " فوكو ياما " في كتابه " نهاية التاريخ " يجسد تلك الروح العدوانيةلأنه يضع ملامح لفلسفة الغد في إعادة ترتيب القوى العالمية على ضوء الواقع العالمي الجديد . فبعد إنهيار المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفياتي يجب على الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية أن لا تركن إلى الجمود والكسل وعليه بأن تظل على أهبة الاستعداد من موقع قيادتها للعالم وهذا لملء الفراغ الذي تركه الاتحاد السوفياتي .والسؤال المطروح : ما هو البديل المرشح لاستخلاف العدو الشيوعي البائد؟

لاشك أن الواقع الحالي يجيب عن هذا السؤال بدون تردد . فالعدو المفترض للغرب إنما هو الإسلام الذي يحاول اليوم إثبات وجوده على الساحة العالمية كقوة ثقافية حضارية للغد . وإذا لم تبق أمريكا سيدة العالم فلن تكون نهاية التاريخ فحسب كما يقول " فوكو ياما " بل إن الصدام آت لاريب فيه وسيكون صدام حضارات . لكن هل هذا الصدام عسكري ؟

لا نخال ذلك فالقوة العسكرية محسومة لصالح الغرب الأقوى . هل يمكن أن يكون الصراع اقتصاديا ؟

---

(1) مجلة دراسات فلسفية : مجلة سداسية متخصصة يصدرها معهد الفلسفة بجامعة الجزائر العدد الأول السداسي الأول 1996 ص30

لا يكاد عاقل يسلم بذلك وكلنا يعلم أن موادنا الأولية تصدر كلها إليه وأن مستورداتنا الغذائية و الصناعية من إنتاجه مما يجعله أيضا في موقع اليد العليا ما دام أن كل من يملك الاقتصاد والسلاح يملك حتما النفوذ السياسي . ماذا بقي ؟

إن " هنتنجنتن" يتكهن بأن الصراع المستقبلي سيكون صراعا ثقافيا على إفتراض أن الحضارة العربية الإسلامية هي وحدها القادرة على الوقوف في وجه الغرب دينيا ولغويا وتاريخيا وثقافيا . ودون الدخول في عرض نظرة وتصور مفكري الغرب لطبيعة الصراع المستقبلي يجدر بنا أن نضع خطة ثقافية مدروسة موجهة توجيها سليما لتحقيق الغاية المنشودة وهذا ماكان " مالك بن نبي " قد أشار إليه في عملية التوجيه الثقافي .<< إن فكرة

التوجيه الثقافي قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف >> إن واقع البلدان العربية والإسلامية يثبت ذلك الاستيلاب الثقافي في جميع صوره فكم لا حظنا بلدانا عربية تنتهج النظام الرأسمالي , ثم تعوضه بالاشتراكية , ثم تستعيضه بالإسلام الاشتراكي العربي ...الخ . إن مشكلة التوجيه حسب " مالك بن نبي " هي أولا وقبل كل شيء توجيه في عنا صر الثقافة مبتدئين بتوجيه المبدأ الأخلاقي الذي هو في ما هيته هبة من السماء إلى الأرض كما يشير إلى ذلك القران الكريم :
<< لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم >>
وفي هذا يقول "مالك بن نبي" :

<< إنه كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحضان الزاهرة لحضارته أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي فإنه يجد سطورا من الفكرة الدينية >>(1)

و إذا ما تأملنا فكرة " مالك ببن نبي" في كتابه (فكرة الإفريقية الآسيوية) نجدها تتطابق مع فكرة (اللاعنف) التي أتى بها " غاندي" و بين مفاهيم الإسلام و سياسة عدم الانحياز.

يقول تعالى : << أدعوا إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن>>

إذا " مالك بن نبي" يريد أن يجعل الأخلاق عنصرا يدخل في تكوين الثقافة لأن الأخلاق تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض.

---

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 17

لذى يقول " مالك بن نبي":

<< ليس الهدف منها أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة و لكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه أعني أن نعلمه كيف يتحضر>>(1) و هذا يعني أن التربية الإجتماعية هي بالدرجة الأولى ثقافة . إن كلمة " تربية إجتماعية " تعني حسب " مالك بن نبي" :<< وسيلة فعالة لتغيير الإنسان , وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه , و كيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما و كيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ >> (2)

و هذا يعني أنه ينبغي أن نحدد من أجل هذا الإنسان الشروط الأولية التي تحقق له ما يبتغي من ثقافة و في هذا يقول " مالك بن نبي" :

<< و من الواجب أن نفكر مليا في هذه المصطلحات لا عن طريق الإستعانة بقاموس تمسك به اليد ولكن من طريق الاستعانة برأس مستقر بين اليدين. فليس الأمر إذن أن نقول: أن الثقافة تحتوي بصفة عامة عددا من الفصول هي : الأخلاق و الجمال , و المنطق العملي و الصناعة الفنية .و لكن الأمر يقتضينا أن نتساءل : كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد , في ظروف نفسية زمنية معينة أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية وفي مستوى أهداف الإنسانية>> (3) و هناك عنصر أخر من عناصر الثقافة و هو الذوق الجمالي , فما هو الذوق و التوجيه الجمالي ؟

<u>التوجيه الجمالي:</u> إستقراء التاريخ البشري و الحضاري يثبت أن الجمال جزء لا يتجزأ من الثقافة لأن الثقافة بالمفهوم الواسع تحتوي على العديد من العناصر كالمنطق العملي والأخلاقي و الجمالي .إذا التوجيه الجمالي : هو ذلك الذوق الجمالي الذي يتجسد في مختلف سلوكات الأفراد و معاملاتهم و في أوجه حياتهم المختلفة إبتداء بما يرتدونه من البعض ملابس و ما يتناولونه من أغذية لأن الغذاء علم و فن و يتمثل في كيفية مخاطبتهم لبعضهم و غيرها .... الخ

---

(1) مالك بن نبي : المصدر نفسه ص 93

(2) مالك بن نبي : المصدر نفسه ص93

(3) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص94

يقول " مالك بن نبي" :

<< و الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال , بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أي حضارة فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا و أن يتمثل في شوارعنا و بيوتنا و مقاهينا , مسحة الجمال نفسها , الذي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي >> (1)

إن النفس البشرية إذا كانت صافية طاهرة نقية تقية , فإننا نجد ما يدور بفكرها من أفكار موازية لها , أما إذا كانت خبيثة فاسقة متنكرة لذاتها لاقدّر الله فإنها تكون على قدر ذلك أي تأكل ذاتها بذاتها وهذا ما كان قد أشار إليه الشاعر اللبناني الكبير " إيليا أبو ماضي "

إن شر الجناة في الأرض نفس　　　تتوقى قبل الرحيل الرحيل

وترى الشوك في النفوس وتعمى　　　أن ترى فوقها الندى إكليلا

والذي نفسه بغير جمال　　　لا يرى في الوجود شيئا جميلا

أيها المشتكي وما بك داء　　　كن جميلا ترى الوجود جميلا

وأستحضر هنا ما قاله الشيخ العلامة " محمد الغزالي "في كتابه بعنوان : " جدد حياتك وعلى وجه ا لدقة في الجزء الخاص بأثر النفس والفكر في الحياة البشرية بعنوان "حياتك من صنع أفكارك " وفيها يقول :

<< سعادة الإنسان أو شقاوته أو قلقه أو سكينته تنبع من نفسه وحدها , إنه هو الذي يعطي الحياة لونها البهيج , أو المقبض , كما يتلون السائل بلون الإناء الذي يحتويه :فمن رضي فله الرضى , ومن سخط فله السخط >> (2)

إن الجيوش التي يحسن بلاؤها وتعظم بسالتها إنما تستمد طول مقاومتها من رسوخ العقيدة وقوة الصبر , أكثر مما تستمده من وفرة السلاح والغناء . فذخيرة الخلق المتين والمسلك العالي أجدى على أصحابها وأكسب للنظر من أي شيء أخر .

---

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ت/ عبد الصبور شاهين دار الفكر ص 153 154 .

(2) محمد الغزالي : جدد حياتك الطبعة الثالثة 1986 قسنطينة ص 105.

والرجل الذي تربو ثقته بنفسه لا يشل إقدامه على الحياة نقص بدنه أو عنت في ظروفه , بل قد يكون ذلك مثار نشاطه , وشدة شكيمته . إن الإنسان عندما يرتفع عن مستوى سطح الأرض تتغير الأشكال والأحجام في عينيه , وتكون نظرته إلى ما دونه أوسع مدى وأرحب أفقا . وكذلك إرتقاء الإنسان في مدا رج الإرتقاء الثقافي والكمال الخلقي , انه يغير كثيرا من أفكاره وأحاسيسه . إن النفس وحدها هي مصدر السلوك والتوجيه حسب ما يغمرها من أفكار ويصبغها من عواطف .(1)

ونحن نستطيع أن نصنع من أنفسنا ما نريد من خلال تجديد أفكارنا ومشاعرنا , كما تتجدد الرقعة من الصحراء إذا أضيف إليها مقدار ضخم من المخصبات والمياه .إننا نتحول أشخاصا آخرين كما تتحول هذه الصحراء القاحلة روضة غناء . ومن هنا كان الإصلاح النفسي الدعامة الأولى كما ذكرنا سابقا في التغيير النفساني لتغلب الخير في هذه الحياة . فإذا لم تصلح النفوس أظلمت الآفاق , وسادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم ولذلك يقول تعالى : << إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم , وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له , وما لهم من دونه من وال >> *كما يقول معللا هلاك الأمم الفاسدة :

<< كدأب آل فرعون والذين من قبلهم , كفروا بآيات الله , فأخذهم الله بذنوبهم ,إن الله قوي شديد العقاب , ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم >>*

وهذا يعني أن الله عز وجل يبين لنا الصلة الوثيقة بين صفاء النفس وصفاء العيش وبين جمال الخلق وجمال الحياة . إذا ينبغي توجيه الناشئة القادمة توجيها جماليا في مختلف مجالات الحياة لأن تأثيره عام كما قال " مالك بن نبي " يمس كل دقيقة من دقائق الحياة , كذوقنا في الموسيقى , وفي الملابس , والعادات , وأساليب الضحك , والعطاس , وطريقة تنظيم بيوتنا , وتمشيط أولادنا , ومسح أحذيتنا , وتنظيف أرجلنا >> (2)

---

(1) محمد الغزالي : المصدر السابق نفسه ص106- 107

*الرعد : الآية 11

*الأنفال : الآية 52 -53

(2) مالك بن نبي : شروط النهضة ص 142

إن عنصر الجمال ضروري لكل حضارة ويبقى المشكل في كيفية توجيه هذا العنصر لأنه يعبر عن إيديولوجية هذا الشعب أو تلك الأمة . ومن ثمة وجب علينا إخضاع العنصر الجمالي للعنصر الأخلاقي دون إفراط ولا تفريط لأنهما متسايران معا وأي إخلال بهما يخل حتما بالأساس الحضاري لتلك الأمة . وعلينا في الأخير كما قلنا تحضير ذلك الإنسان الجديد صاحب المنطق العملي .

فما هو المنطق العملي ؟

حينما نتحدث عن الثقافة الإسلامية يجب أن ننبه إلى أن الإسلام ينتقي الإنسان من قوقعته التي يعيش فيها ويخرجه منها إخراجا ليصل لبه وقلبه بالشمس والقمر والأرض والسماء والحياة والأحياء وتأملوا سيادة الدكتور قوله تعالى :

<<إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون , وإختلاف الليل والنهار , وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها , وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون , تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق >> *

وهذا يعني أن هناك دلائل صارخة بأن الإنسان لا ينضج له يقين إذا إنعزل في كهف من القصور والجهالة بما حوله من مظاهر الكون . ولو أن التفكير الإسلامي أخذ مجراه العتيد في ضوء من هدايات الله التي رأينا قبسا منها لكان له شأن آخر في هذا العصر .(1)

لكنه التوى وتراجع لظروف لا مكان لذكرها هنا . إذن من حق الحياة علينا ومن حقنا على أنفسنا أن نقتبس ونستفيد ممن أحسنوا حيث أسأنا وممن تمرسوا بعلوم الطبيعة في الوقت الذي اشتعلنا فيه بعلوم الجدل وأمثالها . لذا نجد المنطق العملي حسب ما عرفه " مالك بن نبي" بتلك المبادرة الواجب أن تتوفر فينا من أجل القيام بالعمل المستمر , ليس من اجل الحصول على لقمة العيش وحسب بل من أجل إستخراج أقصى ما يمكن من الفائدة .

<< إن العقل المجرد كما يقول مالك بن نبي متوفر في بلادنا غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والإنتباه فهو شيء يكاد يكون معدوما >> (2)

---

* الجاثية : الآيتان 3-6

(1) محمد الغزالي : ظلام من الغرب دار الشهاب للطباعة و النشر باتنة 1986 ص 289

(2) مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ت/ عبد الصبور شاهين ط/4 دار الفكر 1984 ص 72

وبذلك يكون" مالك بن نبي" قد حدد في زمانه مرضا نفسيا يتمثل في كثرة الكلام وسرعة القلق والتهيج وانعدام الفعالية وقلة الحركة .

وأتذكر هنا تصريحا أدلى به وزير الدفاع الإسرائيلي السابق" موشي دايان" فثارت ثائرة اليهود وأعابوا عليه ذلك وقالوا : نخاف أن يطلع عليها العرب . فقال لهم : لا تخافوا لأن العرب لا يقرأون , وإذا قرأوا لا يفهمون ,وإذا فهموا لا يعملون ...الخ .ويمكن فعلا أن نقر بهذه الحقيقة إلى حد ما وفي مرحلة معينة .

أما الآن وقد إستيقظ الإنسان العربي المسلم من سباته , فلتنفجر قدراته , وتتفتق طاقاته , وأن يفسح لها المجال , خاصة للباحثين اللذين هم نخبة وخيرة أبناء الأمة .

ونافلة القول فان توجيه العمل كما يقول " مالك بن نبي " في مرحلة التكوين الاجتماعي يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد , بما في ذلك جهد السائل , والراعي , وصاحب الحرفة , والتاجر , والطالب , والعالم , والمرأة ,والمثقف , والفلاح كي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء . (1).

إذ أن كل هذه المعطيات من توجيه أخلاقي , وخلق الذوق الجمالي مع توجيهه, وإيجاد المنطق العملي وتوفره تعمل على تغيير مجرى حياة الإنسان .

وقد اقترح " مالك بن نبي" عدة حلول من أهمها :

ملتقى الفكر الإسلامي في المجال العلمي .

كما أنه صاحب فكرة " التوجيه الجماعي " والذي لم يرى النور إلى حد الآن .

وهو صاحب فكرة الافرو آسيوية .

إننا نؤمن بأن مهمة المثقفين المسلمين في هذه المرحلة بالذات فعالة وحاسمة وان كنا نسلم بأن مهمة تحقيق الحوار الثقافي والحوار الحضاري والحوار الديني تبدو أصعب مطلبا من تحقيق الصدام الثقافي الحضاري .

---

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ص163.

إن حوار الثقافات والحضارات تشترك فيه كل مقومات الطاقة الإنسانية من دين ولغة واقتصاد وسياسة في حين أن صدام الحضارات والثقافات قد يخضع لمجرد حماقة سياسية ما أو لتهور عسكري طائش لتكون الكارثة وصدام الحضارات لاقدر الله .

حل مشكلة التوجيه السياسي:

سنتناول في هذا العنصر المتمثل في حل مشكلة التوجيه السياسي بدراسة مجالامن الفكر الإسلامي لا يزال خصبا ولا يزال محملا بالأفكار المسبقة للدارسين من المسلمين وغيرهم ودون العودة إلى ضبط مصطلح " سياسة " لأن هذا العمل تم إنجازه في عنصر التغيير السياسي نقول بأن إلغاء الأضواء الكاشفة على الفكر الإسلامي في المجال السياسي يرمي إلى توضيح كون السياسة في المجتمع الإسلامي لم تكن تسير على غير هدى وإنها كانت تستوحى رغم بعض الانحرافات في المجالين النظري والتطبيقي مبادئها وأهدافها من القرآن والسنة وغيرهما من مصادر التشريع في الإسلام . ومفكرنا الكبير "مالك بن نبي " لم يكن من أولئك الدارسين اللذين اهتموا بجمهورية أفلاطون أو بكتاب السياسة لأرسطو ...الخ .وإنما اهتم اهتماما بالغا بالفكر الإسلامي الأصيل المستمد من العقيدة الإسلامية بهدف تغيير أوضاعه الاجتماعية من خلال تغيير ماهيته وجوهره وفي هذا يقول "مالك بن نبي " : << وما السياسة في جوهرها إلا مشروعا لتنظيم التغييرات المتتابعة في ظروف الإنسان وأوضاع حياته , هذه العلاقة التي تحدد وضع الفرد باعتباره غاية كل سياسة , تعتبر الفرد أيضا عاملا لتحقيق تلك الغاية >> (1)

السياق التاريخي للنظرية السياسية في الإسلام :

لقد أجمع المؤرخون بأن هناك حادثتين أثرتا تأثيرا بالغا في المستقبل السياسي للعالم الإسلامي وهما :

1- الجدال الذي جرى في سقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار حول موضوع إستخلاف رسول الله (ص)

2- معركة صفين وما أفضت إليه من تحكيم بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان ,وقد ترتب عن ذلك إنقسام الأمة إلى فرق وأحزاب وشيع . ودون الدخول في السرد التاريخي لمختلف مظاهر الفكرالسياسي في العهد الأموي والعباسي وإبان مرحلة الرجل المريض (الدولة العثمانية) أركز على ما عرفه هذا الفكر السياسي في العصر الحديث .

---

(1) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ت/ عبد الصبور شاهين دار الفكر ص87

فمنذ الاحتلال الغربي للأقطار العربية والاسلامية بدأت فكرة التحرر من الاستعمار من خلال الحركات الوطنية مرتبطة بالنظام الغربي (الديموقراطية والليببيرالية) على أنها المثل الأعلى لإقامة حياة سياسية عصرية على أساس الدستور والانتخاب والنظام البرلماني وقد عدت هذه الأقطار تطبيق النظام الغربي الديمقراطي كسبا كبيرا حققته.

ومن ثمة فقد نشات هذه الأجيال في إطار المفاهيم السياسية الوافدة دون أن تعرف كثيرا عن العلوم السياسية الإسلامية أو النظام السياسي الإسلامي , أو تتعمق وجوه الخلاف الواسع بين الدين والدولة في مفهوم الإسلام في حين تنفصل النظرية الغربية عن هذه القيم

أصول النظرية الغربية:

لقد بعثت هذه المفاهيم في الفكر السياسي الغربي حين قدم " ميكيا فيل" نظريته السياسية التي اعتنقتها أوروبا منذ ذلك الوقت , ومازالت تؤمن بهاو تطبقها حيث ادعى " ميكيا فيل " في كتابه الشهير (الأمير LePrince) إلى استقلال السياسة وأولويتها على الأخلاق . وقد اعتبر الفكر السياسي الغربي كتاب الأمير إنجيلا لأصحاب السلطة السياسية , وخط واضح في الفكر السياسي والفلسفة السياسية الأوروبية . إن" ميكيا فيل" قد جحد تعاليم الدين النصراني , وتنكر لمبادىء الأخلاق , فهو يرى أن الغاية تبرر الوسيلة , وأنه على السياسي أن ينظر فقط إلى الوسائل التي يحافظ بها على المركز الذي يصل إليه . وقد مضى على الأساس الذي وضعه (ميكيا فيل) فلاسفة آخرون فصلوا وعمقوا ووسعوا هذه المفاهيم منهم " نيتشه"إلا أن فيلسوفا من طراز (هيجل) كان ينكر أي خلاف بين السياسة والأخلاق ويجب على الحكومة أن تحقق الفكرة الاخلافية لأنها غاية في نفسها .

وفي رأي (ميكيا فيل) إن الإنسان مطبوع على الشر وأنه أقرب إلى الحيوانات منه إلى الملائكة وعنده إن السياسة لا تقوم إلا على الدسائس والمؤامرات لنيل القوة وقد ألف (ميكيا فيل) كتابة في مطلع القرن السادس عشر الميلادي متأثرا بواقع أزمة بلاده (ايطاليا) ثم كانت نظريته بعيدة الأثر في الفكر الغربي كله . وخاصة في الفكر السياسي .

ويختلف الفكر الغربي السياسي في هذا المفهوم عن الفكر الإسلامي الذي يربط بين السياسة والأخلاق كما يربط بين القيم المختلفة . إذ يقر الفكر الإسلامي إخضاع أعمال وسلوك الإنسان للمقياس الخلقي .

وهذا هو الاختلاف الجوهري الأساسي بين الفكر السياسي الإسلامي والفكر السياسي الغربي .
ومع اعتراف المفكرين الغربيين بإخفاق الليبرالية الغربية في البلاد الإسلامية فان معاهد المسلمين وجامعاتهم ما زالت تدرس لهم العلوم السياسية وفق هذا المنهج الغربي , الذي يفصل الدين عن السياسة .وفي هذا يقول " مالك بن نبي ":
<< لقد نفيت الفكرة , وامسك الصم بالسلطة في العامة الجزائرية . وانقطع التيار الإصلاحي فانجرفت المعتقدات الشعبية في تيار (الديماغوجية) المرعد المزبد العقيم وقد منع البلاد من أن تسمع دقات الساعات الحاسمة عام 1939 .
إن السياسة التي تجهل القوانين الأساسية لعلم الاجتماع وهو الذي يعتبر علم بيولوجيا البني والأجهزة الاجتماعية ليست إلا ثرثرة عاطفية , ولعبا بالألفاظ وطنطنة غوغائية >> (1)
وهذا يعني أن هذا المبدأ مبدأ غريب عن الإسلام وتاريخه , فالإسلام في جوهره ليس مجرد إيمان ديني , انه نظام حياة يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينية والزمنية . << فالشريعة هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها .كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب ديني , لان وحدة الأمة روحيا منوطة بوحدتها سياسيا . وفي ذلك يقول " شاخت " : إن الإسلام يعني أن التشريع السياسي الإسلامي لا يقر مذهبا يفرض مفهوما ماديا خالصا أو روحيا خالصا على المجتمعات , أو مذهبا يقدم الاقتصاد على الأخلاق أو الهبوط بالإنسان إلى تجارب الحيوان أو التسليم بالإباحية المطلقة باسم الحرية والتطور المطلق , ويقر المفاهيم التي تقوم على الربط بين القيم وضوابط الحرية والمسؤولية الفردية . >> (2)
ولقد كان من اغرب المحاولات التي قام بها التغريب والغزو الثقافي الادعاء بان الإسلام لا يملك فكرا سياسيا , وقد ظل مثلا الدكتور " طه حسين " وعدد من كتاب العرب الجارين في فلك التغريب يلحون على القول بان المسلمين والعرب لم يكن لهم نظام سياسي أصيل ,
وان مصدر النظرية السياسية هو الفكر الروماني , وان العرب والمسلمين كانوا نقلة لهذه الدراسات .

---

(1) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ت/ بسام بركة دار الفكر ص99

(2) أنور الجندي : سموم الاتستشراق والمستشرقين دار الشهاب باتنة الجزائر 1987ص88

وقد ظل هذا الاتهام كالسيف المسلط سنوات طويلة حتى هب ثلة من مفكري العالم العربي والإسلامي لإثبات هذا الزيف وتأكيد خطئه .

إن " مالك بن نبي " واحد من أولئك المفكرين العمالقة , فهو لم يبق مكتوف الأيدي , ولم يحل به الانبهار اتجاه الحضارة الغربية حينما كان طالبا جامعيا في بالسر بون في باريس بل تناول المسالة بمسؤولية وحكمة وحنكة المفكر الإسلامي والعالم المنطقي واثبت استحالة سلخ أي مجتمع ومنها المجتمع الجزائري عن عقيدته . ولهذا كان الاستعمار يعمل دائما على سلخ الشعوب العربية والإسلامية على طمس كل ما له علاقة بجانبها ا لروحي .

وليست هذه هي المفاجأة كما قلنا بل المفاجأة المذهلة أن أناس من بني جلدتنا يحيون بين ظهرانينا , ويتكلمون بالستنا قالوا لرجال الاستعمار : استريحوا انتم وسنحمل عنكم هذا العبء سنتبنى هذه الأهداف . واستحضر ما قاله الشيخ " محمد الغزالي "في كتابه " جهاد الدعوة ": يقول الدكتور " رفعت الأسد " :

<< إن لنا نظريتنا التي نعتصم بها ونتعصب لها وسننتصر بها لكن الولاء أولا وأخيرا للحزب . للقومية العربية لتسقط الآن والى الأبد كل الو لاءات الأخرى الهجينة والدخيلة والمتقوقعة >> (1)

---

(1) محمد الغزالي : جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج دار الكتب الجزائرية ص120.

لقد انتصرت ألمانيا بتعصبها للعقل الألماني والإنسان الألماني والشعب الألماني برغم كل الويلات التي أصابتها من أعظم الشعوب الغربية حضارة . يقول " ستالين ":<< أيها الرفاق انهي عشرة ملايين إنسان في سبيل الثورة الشيوعية واضعا في حسابه أمرا واحدا هو التعصب للحزب ونظرية الحزب ولو أن " لينين" كان في موقع وزمان ستالين لفعل مثله >> (1) .

فالأمم التي تريد أن تعيش وتبقى تحتاج إلى رجل متعصب والى حزب ونظرية متعصبة ولو فرضنا جدلا أن أصحاب حزب البعث الاشتراكي العربي غيروا مجتمعاتهم العربية ورفعوها إلى أعلى قمة الحضارة لتقبلنا نسبيا ذلك . لكن لا الليبرالية ولا الماركسية و لا البعثية أنقذت الشعب العربي من المرض ولااطعمته وأشبعته من جوع ولا استطاعت محو ظاهرة الأمية المتفشية . ولتوضيح هذه الفكرة يضرب لنا " مالك بن نبي " ميثالا رائعا عن الثورة الجزائرية . إنه لا يختلف إثنان عن المجهودان والمساعدات التي قدمها

" فرا نز فانون " للثورة الجزائرية , إلا أنه غير جدير بان يقود أو يمثل إيديولوجية الشعب الجزائري لأن عقيدة " فانون" تختلف عن عقيدة الشعب الجزائري وفي هذا يقول " مالك بن نبي ":<< إن فانون لا يمكنه أن يمثل الشعب الجزائري لأنه لم يكن يشاطره الرأي وحسب ولم يكن يقاسمه التاريخ >> (2)

إن الفصل في شخصية الشخص إنما تتوقف بالدرجة الأولى في المعتقد الذي يؤمن به ,

وليس في ما يبديه لنا هذا الشخص من حماس سياسي فياض .إن استقراء تاريخ الجزائر يثبت أن إيديولوجية الشعب الجزائري لا يمكن أن تمثلها بطولات يوغرطة وماسينيسا , لأن هؤلاء كانوا على عقيدة تعدد الآلهة أو بالأحرى على عقيدة الوثنية . أم روح هذا الشعب الجزائري النابعة من عقيدته فإنها تمكنت ولأول مرة في التاريخ أن تتوحد وأن تعلن أمام الملأ أن الشعب الجزائري عربي مسلم , وما كان من هؤلاء الأبطال الامازيغ سوى أن يحل فيهم شخص " طارق بن زياد " وهو من جلدتهم وعليه فالجلدة لا توحد بل من الممكن أن تنفر.

---

(1) محمد الغزالي : المرجع السابق نفسه ص 129

(2) مالك بن نبي : شروط النهضة ص 78

وإن التوحد على أساسها غير وارد البتة لا في التاريخ الحديث ولا في التاريخ القديم .

لأن الفرق الوحيد بين الأمم والأجناس هو :

<< إن أكرمكم عند الله اتقاكم >> * ودون التركيز على شروط وخصائص النظام السياسي في الإسلام نعود إلى الواقع الحالي أي المجال السياسي حيث ظهر اتجاه يدعو إلى العالمية إذ بعد التخلص من الاستعمار المبشر في غالبية أقطار العالم الإسلامي بقي للأسف الشديد مظاهر التبعية إذ استمر التخلف الاقتصادي والانحلال الاجتماعي وتفاقمت التبعية للغرب في كل شيء حتى في الغناء يقول " مالك بن نبي " في هذا الصدد :

<<لقد انتهى المجتمع الإسلامي منذ عدة قرون إلى آخر أطوار حضارته وهو اليوم في مرحلة ما قبل التحضر من جديد , ولقد بذل جهودا كبيرة خلال ما يقرب من قرن لكي تدب فيه الحياة من جديد , ولكن إقلاعه يبدو ثقيلا وبطيئا إذا ما قورن ببعض المجتمعات المعاصرة مثل اليابان أو الصين الشعبية التي كانت متأخرة عنه بكثير>> (1)

---

(1) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص97 - 98

ويرى المفسرون أن هناك نوعين من المعوقات . فالمدافعون عن الاستعمار يرجعون إلى الإسلام سبب تأخير الإقلاع . وأما حاملوا لواء النظرية القومية فيعزونه إلى الاستعمار , وفي كلتا النظريتين خطأ جسيم (...) فالفريق الأول عندما يحمل الإسلام مسؤولية كل هذه الأوضاع يتجاهل حقيقة صارخة وهي أن الاستعمار مسؤول عن النصيب الأكبر من الفوضى التي تسود العالم الإسلامي اليوم .أما الفريق الثاني فعندما يلقي اللوم كله على الاستعمار يحاول أن يخفي سياسة التملق التي يتبعها مع شعوبه كونها تخفف عن مضاء المشكلة وحدتها بل على العكس تزيد الطين بلة مما يشبه عملية تخدير لهذه الشعوب عن مسؤوليتها في ورطتها الحالية. وهنا قد وصلنا إلى واحد من أهم آراء " مالك بن نبي " في اعتقادي , والى الوصية الهامة من وصاياه التي على المجتمع الإسلامي أن يسير عليها ألا وهي تركيز الجهود على القيام بالواجب وعدم الاكتفاء بانتظار الحصول على حقوقنا من طرف خارجي .هذه النقطة يكررها "بن نبي " في كافة مؤلفاته تقريبا .

إن الطريق الوحيد للحصول على الحقوق هو القيام بالواجبات . وإن قابليتنا للاستعمار عائدة إلى كوننا متقاعسين عن أداء واجباتنا . إننا نرفع شعارات كبيرة ولكننا نتكاسل عن تنفيذ الخطوات الصغيرة التي لو نفذناها لبنينا المجتمع المثالي القوي القادر على الدفاع عن حقوقه . ويضرب " بن نبي " لتوضيح ذلك اليهود الذين كانوا يعيشون في الجزائر أيام استلام حكومة موالية للنازية في فرنسا بعد الاحتلال الألماني لها عام 1940 فقد منعتهم الحكومة من الانتساب إلى المدارس وصدرت قوانين اقتصادية ضدهم .

ولكن المدارس التي أغلقت قامت بدلا منها مدارس تطوعية البيوت أساتذتها المهندس والطبيب والمحامي , وتجارتهم أنقذوها بفضل تضامنهم الداخلي . ويذكر " بن نبي " بمرارة في مضمار المقرنة مع المسلمين كيف امتنع المتعلمون المسلمون عن أن يفعلوا شيئا مماثلا لمكافحة داء الأمية في المجتمع الجزائري .

هذا هو التغيير الداخلي إذا والذي يعتبر الشرط الأولى لكل تغيير خارجي وفي هذا يرى"بن نبي "<<أن الاستعمار لا يمانع في تمحور سياستنا حول مبدأ مطالبته بإعطائنا حقوقنا , دون أن نفعل نحن شيئا لتغيير وضعنا الاجتماعي و قيامنا بالنهضة المطلوبة

, و بن نبي يؤكد على هذه النقطة دوما حتى حين يتكلم عن العلاقة بين تجمعات البلدان النامية و البلدان المتقدمة.

ففي مقالة عن " مؤتمر 77" الذي نشره في جريدة " الثورة الإفريقية "

- 09 نوفمبر1967 – ينتقد هذه الدول النامية التي لم تحدد التزامات صارمة لكل عضو من أعضائها بل اكتفت بمطالبة الغرب بدفع نصيب للتنمية يقول :<< لقد كنا في الحقيقة ننتظر بنودا تحدد التزامات كل عضو في الوحدة أو الجهة الاقتصادية المزمع تشييدها

لكننا لم نجد في الوثيقة سوى كراسة المقترحات التي ستقدم نيودلهي إلى المخاطب الحاضر غير المرئي وفي الحقيقة نجد الكراسة هذه تطالب بالكثير ,من العالم المصنع

إن لم نقل أنها تطالب بكل شيء ,فتطالب مثلا 1% من مد خوله العام لتنمية البلدان النامية و من الناحية الأخلاقية لعل هذا جائز , و لكن المخاطب لا ينصت لهذا المنطق و لا يتكلم هذه اللغة . و هكذا انزلقت المداولات في الحديث عن حقوق العالم الثالث عوضا عن أن تذكره " بواجباته" نحو نفسه >> (1)

إذا النهضة عند "بن نبي" هي مسالة داخلية أساسا لأنها في نظره تقوم على أساس تقديم مبدأ الواجبات على مبدأ الحقوق , وهو باستمرار يرجع إلى ذكر ما جرى في الجزائر حين بدأت عام 1925 نهضة كبرى بقيادة العلماء الإصلاحيين كان يؤمل لها أن تغير المجتمع الجزائري .

---

(1) مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه – مقال "مؤتمر77" ص 130

لكن النهضة ظلت طريقها ميممة وجهها شطر السراب السياسي , إذ أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة , و نسينا الواجبات و في هذا يقول " مالك بن نبي" :

<< و بدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر و القيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة فإنها أصبحت منذ سنة 1936 سوقا للانتخابات و صارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية فلكم شربنا في تلك الأيام الشاي و سمعنا من الاسطوانات ,

و كم رددنا عبارة "إننا نطالب بحقوقنا"تلك الحقوق الخلابة المغرية التي يستسهلها الناس فلا يعمدون إلى الطريق الأصعب : طريق الواجبات>> (1)

كما أن " بن نبي " ركز في معادلته الشهيرة على العوامل الثلاث : الإنسان , الزمن , التراب وهي بمثابة وصية للسلطة السياسية من جهة وللشعوب من جهة أخرى دون لعن الاستعمار . علينا أن نضفي فكرتنا عن الوقت لما مزجت من عادات بالية إبان عصور الانحطاط ..ما بعد الموحدين . ومشكلة الوقت هي التي أهّلت ظاهرة كاليابان لتستولي على الاقتصاد العالمي في القرن العشرين وكذلك ألمانيا . وقد ركز " بن نبي " في معادلته الشهيرة على العوامل الثلاث وهي : الإنسان , التراب , والزمن .

فبالنسبة للإنسان أعتقد أنه أخذ حقه من التحليل والتعمق لأن كل العمليات التغييرية تنطلق منه وتعود إليه .

---

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 34-35

أما :

عنصر التراب :

فيعتبره " بن نبي " أي عمل التراب عامل أساسي في تكوين التاريخ الحضاري , أي تلك الناحية المادية والحيوية المحيطة بالإنسان والذي ما عليه إلا أن يستغلها إستغلالا عقلانيا كاملا .وفي هذا يقول " مالك بن نبي " :

<< فالتراب في أرض الإسلام عموما هو على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه ...>> (1)

ولعل من حسن حظ الشعوب العربية والإسلامية أن وهبها الله أرضا سخية في مختلف المجالات الاقتصادية فهذا السودان يتميز بإنتاج القطن وهذه فلسطين وبلاد الشام تتميز بإنتاجها الوفير للحمضيات وتلك الجزائر تعتبر من الدول الكبرى في العالم من احتياطها للغاز والبترول والمغرب بثروته السمكية وتونس بالزيتون ..الخ . لقد بدأ مؤخرا في الجزائر التفكير في المواصلات والموانىء والمطارات . كما أصبح التفكير أيضا في كيفية إيجاد الحلول لما يسمى بهجرة الأدمغة الجزائرية . وكان " بن نبي " قد أشار إلى التصحر من خلال الحل الذي قدمه هو شخصيا والمتمثل في " السد الأخضر >> .

عنصر الزمن :

إن الفراغ في العالم الإسلامي والعربي ومن بينها مجتمعنا الجزائري يدمر ألوف الكفاءات والمواهب , ويخفيها وراء ركام هائل من الاستهانة والاستكانة . ولقد نبه النبي (ص) إلى غفلة الألوف عما وهبوا من نعمة العافية والوقت فقال :

<< نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ >>

اجل .. فكم من سليم الجسم ممدود الوقت يضطرب في هذه الحياة بلا أمل يحدوه , ولا عمل يشغله , ولا رسالة يخلص لها ويصرف عمره لإنجاحها . ألهذا خلق الناس ؟ كلا

فالله عز وجل يقول : << أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لترجعون >>

---

(1) مالك بن نبي: شروط النهضة ص179

*المؤمنون :الآية 115

وختام القول هو أن ما تدعيه الأنظمة الغربية من ديمقراطية وانفتاح على العالم والحوار وحرية التعبير وقبول رأي الآخر هي أفكار أشار إليها " مالك بن نبي"من خلال كتاباته و تحدث عن أهميتها و حاجتنا إلى أنظمة وشعوب تتوفر فيها هذه الشروط وتترسخ بها هذه الأفكار
فالديمقراطية مثلا هي من أهم هذه الأفكار و من اولويات حقوقنا نحن كشعوب عربية إسلامية فالمواطن يريد الإدلاء برأيه دون قيد و لا شرط وخوف من قبل حكامنا حتى و إن كان انتقادا لاذعا أو مدحا أو دعوة أو نداءا أو مناشدة
كما انه يرغب في التمتع بحقوق عديدة كحرية التعبير عن طريق المظاهرات أو الاحتجاجات أو التجمعات فالمرآة الكويتية لم تتمكن إلى حد الآن من الحصول على حقها في التصويت أو الترشح أما التونسية فمنعت من ارتداء الحجاب الذي فرضه الله عز وجل وجاء هذا النظام الاستبدادي كي يحرمه.
وهناك أمثلة عديدة توضح مدى التعسف والجور و الديكتاتورية التي تتعرض إليها بعض الشعوب خاصة العربية الإسلامية.
حتى في الغرب لم يسلم المسلمون من هذا الاستبداد ففي فرنسا على سبيل المثال منع ارتداء الحجاب عن المسلمات و في بريطانيا التي تهاجم المسلمين كل يوم عبر الإعلام
و عبر التصريحات المغرضة و المهينة للإسلام كل هذا و يتكلمون عن الديمقراطية الغربية و الأمريكية إنها شعارات زائفة يرفعونها و تصريحات فضفاضة يقولونها
و لكن الديمقراطية عند " مالك بن نبي" أمر آخر و صفات ومميزات النظام الحاكم هي مميزات خاصة تتمثل في العدالة في التخلص من التبعية السياسية و الاقتصادية في النزاهة وعدم المتاجرة بدماء الشعوب و مصيرهم , في الاهتمام بمختلف القطاعات أهمها قطاع التعليم وقطاع الصحة الحرص على توفير مستوى معيشي محترم و دخل شهري معتبر خلق فرص عمل ......الخ
وخاصة أسبقية الحقوق على الواجبات مع تمكين المواطن من حقوقه السياسية و الاجتماعية : التظاهر, تكوين أحزاب سياسية , الانتخاب و الترشح في حال توفر الشروط, كحق التمثيل في البرلمان.
هذه هي مجمل المميزات التي اقترحها مفكرنا" مالك بن نبي" للنهوض بالأمة و بناء صرح حضارة .

حل مشكلة التوجيه الإقتصادي

سبق وأن أشرنا في الفصل الثاني وعلى وجه الدقة في العنصر الخاص بالتغيير الإقتصادي أن الإقتصاد عصب الحياة . أما في هذا العنصر فسوف أقوم مبدئيا بضبط مفهوم " علم الإقتصاد " لأنه جرت العادة سيادة الدكتور منهجيا القيام بتعريف الموضوع
الذي سنتناوله . وعليه يمكن تعريف الاقتصاد بأنه :
<< هوإسم ذلك النوع من المعرفة الذي يتصل بالثروة أي انه ذلك العلم الذي يختص بدراسة الوسائل التي يمكن بواسطتها لأمة ما أن تغتني >> (1)
وقد إستمد هذا التعريف من أول بحث منظم كتب في علم الإقتصاد ونشره " آدم سميث " في عام 1776 تحت عنوان " بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها "
وبذلك يصبح الإقتصاد ذلك العلم الذي يقتفي اثر ذلك النوع من قوانين الجماعة الذي ينشا من عمل بني الإنسان في سبيل إنتاج الثروة .
وكلمة "علم " لا تعني أنها دقيقة ومحكمة وثابتة وليست لها صورة الحقيقة المطلقة لأنها ليست مماثلة لقوانين الطبيعة من حيث عمومها وسلامتها , وهي أيضا ليست قوانين عامة وشاملة التطبيق فهي تتغير بتغير الزمان والمكان . وفي هذا يقول " أوغست كونت " :
<< ليست للقوانين الإقتصادية انضباط قوانين العلوم الرياضية والطبيعية بل هي كباقي قوانين العلوم الإجتماعية , قد تنطبق أولا تنطبق , وتكاد أبحاث علماء الغرب أنفسهم تجمع على أن الإ قتصاد الوضعي أقله علم وكاره فكر >> (2)

إن المفاهيم التي طرحها " علم الإقتصاد"حديثا والذي تدرسه جامعاتنا ومعاهدنا على طول العام العربي والإسلامي وعرضه لا تتجاوز المذهب الغربي الرأسمالي , أو هي وليدة المذهب الماركسي , وكلاهما يشكل وحدة تامة ذات جذور مرتبطة إلى الحد الذي يمكن القول معه بلا حرج بأن النظرية الماركسية هي رد فعل لنظرية الرأسمالية .

---

(1) د/ إسماعيل محمد هاشم : مبادىء الإقتصاد التحليلي دار النهضة العربية بيروت 1978 ص 6.

(2) أنور الجندي : سموم الإستشراق و المستشرقين دار الشهاب باتنة ص181.

ولكن العالم كله يدور الآن في فلك نظام إقتصادي مرتبط بالعالمية ونفوذ الرأسمالية وسلطان اليهودية العالمية التي نظمت مفاهيم الإقتصاد السياسي وتحركاته على النحو الذي يحقق لها السيطرة على الموارد المالية العالمية .

ولقد سقط العالم الإسلامي في بوتقة الإقتصاد منذ أن وقع تحت النفوذ الإستعمار الذي سيطر على موارده وإقتصادياته وأرصدته المالية . فحال بينه وبين تطبيق المفهوم الإسلامي للإقتصاد من حيث سيطرة المصرف الأجنبي ووسائل التصدير والإستيراد

الأجنبية وكأنها قضاء وقدر . وفي هذا يقول " مالك بن نبي " :

<< إذا ما عدنا, لموقف نخبتنا المثقفة في المجال الإقتصادي نرى هذه النخبة تقف مجرد مواقف إختيار بين ليبرالية "ادم سميث" ومادية "ماركس" كأنما ليس للمشكلات الإقتصادية سوى الحلول التي يقدمها هذا أو ذاك >> (1)

وإذا أردنا أن نبحث عن أسباب ذلك لأرجعنا هذا الإستيلاب الإقتصادي إلى ما يلي :

1- أسباب تاريخية: والتي تعود في ماهيتها إلى ظاهرة الإستعمار .

2- أسباب ذاتية(نفسية) : الأدهى والأمر أن جامعات العالم الإسلامي والعربي تدرس الإقتصاد الإشتراكي و الإقتصاد الرأسمالي وإذا درست الإقتصاد الإسلامي ألمت به إلماما سريعا وأشارت إليه هكذا وكأنه غير موجود واقعيا . متجاهلين بذلك بل ومتنكرين لروحهم وماهيتهم وهذا ما نستشفه في سلوكا تهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم أي الشعوب العربية و الإسلامية . فالأسواق المختلفة عندنا مثلا كسوق السيارات والماشية وغيرها ...الخ إنما تعيش الربا والغش في أوجه مظاهره إذ أن ا لشخص يحلف بالله وبرسوله وبالقرآن وبوالديه وبزوجته ...الخ من أجل تحقيق غرض مادي فان وهذا دليل على إستيلاب المسلم إقتصاديا .

1- كما يظن كثير من أولي الأمر ممن يثورون على التخلف وأسبابه , وينشدون التقدم ويبحثون عن سبيله . إن مفتاح التقدم والرقي الإقتصادي كامن في الوسائل العلمية والتنظيمات والتخطيطات المباشرة فقط . ولا يتصورون أن للمعارف والأخلاق الإنسانية وأصول الثقافة أي دور في الموضوع والمجال الإقتصادي .

---

(1) مالك بن نبي : المسلم في عالم الاقتصاد دار الشروق ص 08

فأنتم ترون سيادة الدكتور أن إهتمام هؤلاء الكثيرين منصرف إلى الحديث عن التقنية وما يسمونه بالمناهج العلمية في الإقتصاد وعملية الإنتاج .. وربما توهموا أن الكثير من العلوم والمعارف الأخرى إن هي إلا تفاهات نظرية تفضي الأمة عن مجال العلم والإنتاج .والحقيقة التي لا ريب فيها أن هذه النظرية تنطوي على سذاجة بالغة في تصور طبيعة الحياة وعلاقة العلوم المختلفة بعضها ببعض , ثم علاقتها جميعا بحوافز
الجد والنشاط العملي .

لكن ومما لا شك فيه أن أي سعي من الإنسان نحو أي لون من ألوان التطور في سبيل عيشه وسعادته ثمرة طبيعية لمعرفة هويته ذاته , من حيث هو فرد , ومن حيث هو عضو في المجتمع ذو صلة بهذه الطبيعة . ولذلك ضرب لنا مفكرنا الكبير " مالك بن نبي " في هذه النقطة مثال بالدكتور " شاخت " حينما وضع مخططا إقتصاديا لبلاده
" ألمانيا " قبل الحرب ومخططا إقتصاديا للشعب الاندونيسي فما كان لمخططه أن ينجح في رقي وإزدهار أندونيسيا إقتصاديا . وفي هذا يقول " مالك بن نبي " :

<< كانت القضية ولا زالت فضية تطعيم ثقافي للمجتمع الإسلامي يمكنه من إستعمال إمكانياته الذهنية والجسمية وبصورة عامة تجعل كل فرد فيه ينشط على أساس معادلة إجتماعية تؤهله لإنجاح أي مخطط إقتصادي , أو بعبارة أخرى فالدينا ميكية الإقتصادية ليست هي هذه النظرية أو تلك الخاصة بعلم الإقتصاد , بل هي مرتبطة بجوهر إجتماعي عام قد نجده على حد سواء , في تجربة اليابان الرأسمالية أو تجربة الصين الشيوعية 1949 , خصوصا بعد أن عدلت ثورتها الثقافية(1966- 1978) المعادلة الإجتماعية في الفرد الصيني ذاته >>(1) . وهذا يعني أنه لا سبيل إلى إيجاد مخرج إقتصادي للعالم العربي والإسلامي إلا باستعادة جادة وموضوعية للتاريخ يستعرض فيه وقائع الأمم وحياة الشعوب وتجاربها ... ويتطلع منه على نماذج للسعادة والشقاوة الإنسانية وعوامل كل منهما وأثاره بالنسبة للفرد والجماعة حتى توفر المناخ المناسب والجو الملائم لشروط

---

(1) مالك بن نبي : المسلم في عالم الإقتصاد دار الشروق ص9-10.

الإقلاع الإقتصادي وفي هذا يقول " مالك بن نبي " :

<< إن مخططا ما يجب أن لا تكون له هوامش لعاب , بعضها من لعاب الرأسمالية , وبعضها ا لآخر من لعاب الماركسية , فأي مشروع نفكر فيه بأفكار البعض , ونحاول إنجازه بوسائل البعض الآخر معرضا للفشل لا محالة >> (1) .

وهذا يعني أن بناء صرح إقتصاد عربي إسلامي إنما يتوقف على ما يحتويه من أفكار وما يتوفر عليه من إمكانيات ذاتية , خاصة وأن العصر الحالي لا يعترف بالضعفاء , إذ لا مكان فيه إلا للأقوياء وبالدرجة الأولى الأقوياء إقتصاديا . إن المجتمع في منطلقه حسب

"بن نبي " يتمتع دائما بسلطان إجتماعي يمثله : الإنسان والأرض والزمن اللذين يملكهم في الحالات جميعا , لكنه لا يملك سلطانا ماليا دائما .

إن بلدا متخلفا مثلا ليست لديه عملة ذات قيمة دولية يستطيع بها تجهيز صناعاته بالآلات الضرورية لأن عملته هي المادة الخام المصدرة إلى البلدان المصنعة , ومنها ما يفيض عن إستهلاكه من القمح والأرز ...الخ . هذه المواد هي ما لديه كوسيلة إ ستثمار في الخطوة الأولى من أجل إ قتناء ما يحتاجه في ميدان التصنيع . ولعل تجربة " الجزائر " في تسويق الغاز ومصادر الطاقة وما لا قته من معوقات تدل على ضعف هذه العملة ما دامت غير محصنة . هاهو البرميل الآن للبترول " البرنت " يتجاوز(60 دولار) وها هي خزينة الدولة حسب الخبراء الإقتصاد يين مملوءة فهل إستثمرنا ذلك إستثمارا عقلانيا ووفرنا شروط الإقلاع ؟

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على ما يسميه " بن نبي " اللافعالية الإقتصادية في العالم العربي والإسلامي .

---

(1) مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه الطبعة 1978دار الفكر 152.

وإعتمادا على ما سبق فالمسألة إذا لا تتصل بنقص وفقر في الوسائل لأن العمل هو الذي يخلقها . ولكن بفقر في الأفكار . فالمجتمع في نظر " مالك بن نبي " لا يقاس بما يحمله من أشياء ولكن بما يحمله من أفكار ولهذا فإنه ومن أجل دفع الآلة الإجتماعية في الحركة أو بالأحرى من أجل تحقيق شروط الإقلاع . يقول " مالك بن نبي " :

<< يجب أن يقوم التخطيط على مسلمة مدرجة كمبدأ عام لكل تشريع إجتماعي إقتصادي ألا و هي (كل الأفواه تستحق قوتها , وكل السواعد يجب عليها العمل >> (1).

وهذا يعني أن أي مجتمع متخلف يريد تغيير أوضاعه ودفع عجلته إنما يكون على هذا الأساس الدستوري الذي يتكفل سائر الحقوق , ويفرض جميع الواجبات ويحقق بذلك الحركة الإجتماعية التي تنقلب على كل نوع من الركود .

كما يواجه العالم العربي والإسلامي مشكلة تسويق المواد الخام , تلك التي لا تملك وسائل تغييرها وتصنيعها في بلادها فتصدر إلى الخارج "أمريكا وأوروبا " حيث تقوم صناعات التحويل والتغيير ثم تعود إلينا من جديد وبأي سعر وبأي ثمن ! ؟ وأحيانا تحت شروط وضغوط تفقد من خلالها إستغلال قراراتنا السياسية .

يرى الأستاذ المفكر " مالك بن نبي " أن الحياة ا الإقتصادية تتوقف على التخطيط المستند إلى المبادىء والمسلمات الخاصة بالإستثمار الإجتماعي وهما إثنان :

1- يجب القوت لكل فم.

2- يجب العمل لكل ساعد .

ويقصد بذلك أنه على جميع سواعد الشعب الجزائري مثلا أو العربي أو الإسلامي أن تشتغل وأن تعمل لأن العمل هو الرصيد الحقيقي والثروة الجوهرية لحظة الصفر من إقلاعها . كما يجب وضع إقتصاد القوت فوق سائر تقلبات السوق في الخارج , مع إتباع سياسة التقشف لأن المبذرين كانوا إخوان الشياطين كما ورد في القرآن الكريم .

ويضرب " مالك بن نبي : أمثلة على سياسة التقشف إذ يقر بتجنب إستهلاك بعض الأنواع من الغذاء المستورد من الخارج كالشوكالاطة والويسكي الإيكوسي وسمن النورماندي .

---

(1) مالك بن نبي : بين الرشاد و التيه ط/1978 دار الفكر 154

وهذا ما تقوم به بعض الأنظمة العربية والإسلامية التي أصبحت تهتم بالدرجة الأولى كيف تقوت شعبها كحال المجتمع المصري والمجتمع السوداني ...الخ والدليل على ما نقول مظاهر التسول والتي نشاهدها في العديد من عواصم هذه الدول و بشكل رهيب وأحيانا مذهل.

والمشكلة هذه التي تفرض شرطا مسبقا ليست في الواقع من الصنف الإقتصادي بالمعنى الضيق لهذه الكلمة , ولكنها قبل ذلك مشكلة نفسية ثقافية أو بعبارة أخرى هي من الصنف الإيديولوجي مع توسيع معنى هذه الكلمة .

ويجب على هذه الدول أن تكشف قدرتها الحقيقية التي لا توجد على محور " القدرة المالية ولكن على محور " القدرة الإجتماعية ". وطالما لم تقم البلدان المعنية بهذه الخطوة من أجل تحررها النفسي والثقافي , فإن تحررها الإقتصادي يصعب أو يستحيل .

وهكذا يصبح بعضها الغني يموت جوعا , لأنه لا يحسن التصرف بما آتاه الله من قدرة , بينما هذه القدرة عظيمة جدا عند بعض الشعوب الأخرى حينما يحولها من حيز القوة إلى حيز العمل . إن اليابان لا يملك إلا الثروة العقلية وكذلك ألمانيا سنة 1945 , وكذلك الإتحاد السوفياتي سنة 1968 والصين سنة1948 .

إن للإقتصاد قوانينه الذاتية وكما كان يرى " مالك بن نبي ":

فالتنمية لا تشترى من الخارج بعملة أجنبية , غير موجودة في تجربتنا .فهناك قيم أخلاقية , إجتماعية , ثقافية –لا تستورد و على المجتمع الذي يحتاجها أن يلدها .

إن مشكلة التنمية عند أستاذنا الكبير " مالك بن نبي " تتطابق مع مشكلة الحضارة , ذلك أن النمو حضارة والتخلف إنحطاط . وإن حل مشكلة التوجيه الإقتصادي تتوقف إذن على توجيه العمل وتوجيه رأس المال ولنبدأ :

1- **<u>توجيه العمل :</u>** إن العمل هو الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الإجتماعي , ورغم أنه ليس عنصرا أساسيا كالإنسان والزمن والتراب إلا أنه يتولد عن هذه العناصر الثلاثة , لا من الخطب الإنتخابية والوعظية .

لقد حصر " مالك بن نبي " مفهوم توجيه العمل وتحديد معناه , فهو يعني سير الجهود الجماعية في إتجاه واحد ليضع كل مواطن في كل يوم لبنة جديدة في البناء وتأليف كل الجهود لتغير وضع الإنسان الشيء الذي يضمن كسب لقمة العيش لكل مواطن .

فنحن نعمل ما دمنا نعطي أو نأخذ بصورة تؤثر في التاريخ والعمل ينتج المال .
لكن في أي إتجاه يوجه رأس المال ؟ يرى " مالك بن نبي " أنه يجب أن تتحول كل قطعة مالية من كمون وجمود إلى حركة وحركية متنقلة تخلق معها العمل والنشاط . فالقضية ليست قضية تكديس إذن , لأن الثروة مهما كدسناها ستبقى مالا جامدا عديم الحياة والحركة , بل هي قضية تحريك المال وتنشيطه بتوجيه أحوال الأمة البسيطة
وذلك بتحويل معناها الإجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد. ولهذا كان " مالك بن نبي " يرى أن أموالنا يجب أن تكون مطبوعة بطابع الديمقراطية لا بطابع الإقطاعية , كما أنه من الضروري أن نحول دون تركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة تستعمل السواد الأعظم من الشعب بل يجب أن يتوفر فيه إسهام الشعب مهما كان فقيرا وبذلك يتم التعادل بين طبقات المجتمع
وتنسجم مصلحة المجتمع مع مصلحة الفرد . ولنأخذ على سبيل المثال المجتمع الجزائري وعلى وجه الدقة في المرحلة" البومدينية " حينما قام شباب الخدمة الوطنية بتحويل فكرة " مالك بن نبي " السد الأخضر إلى واقع ملموس رغم أن العملية لم تكتمل ولم تستمر للأسف الشديد كما رسم لها . كما كان هدف الثورة الزراعية إصلاح التراب الجزائري وإستغلاله , وقد كان الساحل الجزائري يمون نصف أوروبا,وكذلك البحث المنجمي وبإختصار وبكلمة واحدة : تحولت الجزائر إلى ورشات وهكذا بدأ التركيب بين : **الإنسان + التراب +الزمن .**
و قد كان الأستاذ المفكر " مالك بن نبي "يركز دائما على معامل " الفعالية " لأننا نشاهد حاليا في العالم الإسلامي أعمالا ونشاطات من أجل النهوض والتنمية . إلا أنها غالبا ما تصطدم بالفشل الذريع لعدم توفر الفعالية , أو ما يسمى بالديناميكية الإقتصادية . وعلى الإنسان المسلم الجديد والجزائري خاصة أن يكتشف أن الإرادة
إذا حركت الإنسان تجعله يكتشف الإمكان . << فالوطن أو المجتمع المسلم كما يقول " مالك بن نبي " الذي يتحول إلى ورشة , سرعان ما يكتشف أن الإ مكان الذي ينتظره مما في يد الغير لتغيير مصيره , هو في يده منذ الآن >> (1) .

---

(1) مالك بن نبي : المسلم في عالم الإقتصاد دار الشروق ص99.

إن الإرادة تكتشف الإ مكان . هذا القانون في المجال الإقتصادي هو في المجال النفسي ما تشير إليه الآية الكريمة << إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم >> وهو أيضا ما يعبر عنه في الحياة الإجتماعية بالقول " إن الإرادة الحضارية تصنع الإمكان الحضاري ".
ونافلة القول متى تكونت لدى العالم العربي والإسلامي إرادة واضحة لتخلص من التخلف سيجد أولا أن إختيار ه ليس محدود بالرأسمالية ولا بالإشتراكية .. ولا حتى بما يسمى الآن بالعولمة أو الأحادية القطبية خاصة وأن الإ ستثمار المالي موجود ومتوفر أحيانا بشكل مرتفع جدا كدول الخليج والدول المصدرة لنفط والغاز((بعض الدراسات تثبت أن دخل المواطن الكويتي يتجاوز دخل المواطن الأمريكي)) . إذن ما الذي ينقص ؟ وماذا بقي من دور ومهام لهذه الأنظمة العربية والإسلامية ؟ يبقى عليها الإهتمام والعناية بعنصر الإنسان لأنه رأس المال الأول والأخير بإصلاحه يصلح كل شيء أو العكس لا قدر الله . كما يجب الإهتمام خاصة بالنخبة فهي بمثابة محرك لتلك الشعوب والأمم وهي الوحيدة القادرة على دفع عجلة الإقلاع .
والمجتمع الإسلامي أجدر من يحقق له وللإنسانية التجربة التي تعيد إلى عالم الإقتصاد أخلاقياته ويتلافى إباحية الرأسمالية وورطة المادية الماركسية إنه وعلى الرغم مما تعرضت له هذه الشعوب العربية والإسلامية من ضغوط خارجية, وظروف داخلية قاسية ومحاولات المسخ التي تعرضت لها تاريخيا , وعلى الرغم أيضا مما يتعرض له حاملي المشروع الحضاري الإسلامي من مضايقات وملاحقات من هنا وهناك بل التعرض للسجن والتعذيب و حتى القتل كما هو الشأن " لباقر الصدر "في العراق على يدي الرئيس العراقي السابق " صدام حسين "والشيخ " محمد الغزالي " وغيرها في عهد مصر الناصرية ...الخ . و كما قلنا سابقا في التوجيه الثقافي أن هناك فئة المتطرفين أيضا عند الغرب ومن بينهم " فوكو ياما " وغيره . وقد ذكر المفكر " مالك بن نبي " مجموعة من الدول يراها قادرة على رفع وحمل مشعل هذا المشروع كالجزائر وليبيا ومصر وسوريا . ذاك هو التحدي , وما ذلك على الله بعزيز. إن المحرك الأساسي والجوهري للشعوب العربية والإسلامية توقف عندما أصيب بتعطيل منذ واقعة " صفين " حينما تم الفصل بين السياسة والأخلاق , والسبب لا يعود حينئذ إلى الطاقة الروحية أو الدافعة العقائدية , ولكن

إلى أهلها و حامليها لأنها " وهنت " أي لم يعد لها مفعول في نفوس المسلم وفي هذا يقول " مالك بن نبي ":

<< حتى إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي , كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة من الوقود >>(1) . ولعل التاريخ يثبت ذلك إذ أن هذه الدافعة أو الطاقة لم يكن لها لتستطيع أن تعمل عملها كما كانت عليه سابقا , وإلا كيف نفسر قيادتها للحضارات العالمية في مرحلة تاريخية معينة ؟

وقد لا يروق ولا يعجب البعض من مختلف المدارس والمذاهب والطوائف هذا الحديث , وقد نتهم بالتزمت والإنطوائية , ولما لا قد نتهم حتى بالرجعية. ولكن مع ذلك نقول ما قاله الشاعر العربي القديم :

أبي الإسلام لا أبا لي سواه   إذا إفتخروا بقيس أو بتميم

إذا فالمحرك حسب " مالك بن نبي" واضح , محدد . لكن الذوات المتحركة هي التي شلت من خلال خضوعها المطلق للحتمية البيولوجية " أي حب الشهوات والسيطرة المطلقة للغرائز العمياء , والموجة المادية الرهيبة " وكما يقول " مالك بن نبي " :

<< فالدين إذا هو (مركب) القيم الإ جتماعية وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة , حالة إنتشاره وحركته , عندما يعبر عن فكرة إجتماعية >> (2) .

إذا شئنا أم أبينا نحن الشعوب العربية والإسلامية لا مخرج ولا مناص لنا إلا بالعودة إلى إكتشاف ماهية ذواتنا , وهذه الماهية لا تأبى الإقتباس من غيرها فيما لا يتعارض مع خصائصها الذاتية . وبذلك تحدد معالم طريق بناء صرح حضارة جديدة قادرة على وضع حد لتيه وتمزق وضياع الإنسان الحالي العربي المسلم .

---

(1) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ص27.

(2) مالك بن نبي : المصدر السابق نفسه ص28 .

الخـــاتمـــة

مختلف الإستنتاجات

إن بحثي المتواضع هذا يكشف لنا بعض النتائج يمكن تلخيصها على النحو التالي:

1- أن نحول ثقافتنا من ثقافة الإستهلا ك إلى ثقافة الإنتاج , وهذا من خلال كيفية تقديم ما عندنا للعالمية بإعتبارنا خير أمة أخرجت للناس حتى يتأتى لنا التواصل مع التاريخ وليس الإنسحاب منه.

هام- تكوين نظرة خاصة بنا تتجاوز المدرستين السائدتين :

1- مدرسة كنت

2- مدرسة عندي

وأستحضر هنا قول أحد الشعراء السعوديون :

نبني كما بنى الأوائل ونعمل كما عملوا

فتدخل الملك السعودي " عبد العزيز" وقال : ونعمل فوق ما عملوا

وبذلك ننتقل من مرحلة مادون إلى مرحلة مثل ثم إلى مرحلة ما فوق ونعني بذلك بناء صرح حضارتنا للتبوؤ من جديد خاصة وأن الإنسانية جربت كل المذاهب والفلسفات والإيديولوجيات والتي أثبتت إخفاقها .

2- قراءة التراث قراءة موضوعية وهذا ما أشار إليه " بن نبي " بقوله : تصفية عاداتنا وتقاليدنا لأن التراث ليس مجرد قراءة ولكن تنقية وتصفية,أي أن نأخذ من التراث ما يعيننا على حاضرنا ولعل هناك الكثير من الأمثلة في هذا المجال فمثلا :

هل الإختلاط حرام ؟ هل ركوب الرجال والنساء للطائرة واحدة حرام ؟

وهل صوت المرأة و قيادتها لسيارة حرام ؟ ... إلخ .

3- التعاون والتكامل والترابط المتمثل في عقد هذه الإتفاقيات بينها وما ينتج عنه من تكامل إقتصادي إسلامي له تأثير في توحيد الكلمة ومبدأ العمل وليس أدل على ذلك من مختلف الأفكار التي قدمها " مالك بن نبي "والمتمثلة في :

- فكرة الأفرو آسيوية

- كمنويلث إسلامي

4- كيف نتعامل مع النصوص على ضوء معطيات الحاضر , أي كيف نسقط النص على أحوالنا الحالية ؟

5- ماتتمتع به البلاد الإسلامية من إمكانيات إقتصادية كبيرة, ومن مواقع إستراتيجية يعتبر السبيل الذي يجعل من العالم الإسلامي ذا شأن كبير خاصة وأن الدين الإسلامي لا يعترف بالحواجزالجغرافياأو اللون أو اللغة وهو يمثل رابطة لا إنفصام لها .

6- إن العالم الإسلامي اليوم بمساحاته الواسعة وشعوبه التي تمثل قوة بشرية هائلة تقدر بأكثر من مليار مليون مسلم , وخاصة عنصر الشباب قادر إذا ما أحسن توجيهه وإستغلاله على إثبات وجوده ككتلة يحسب لهل حسابها جهويا وعالميا .

7-العامل الإقتصادي وما له من تأثير كبير في جعل العالم الإسلامي من القوة بمكان تستطيع فيه تسيير الإقتصاد العالمي, بل وحتى السيطرة عليه والتحكم فيه لما تتمتع به الدول الإسلامية من غنى في خيراتها الطبيعية وثرواتها المعدنية بإعتبارها من الدول المنتجةالمصدرة لأنواع الوقود كالبترول ومنتجاته والغاز الطبيعي والمواد الأولية .

وصفوة القول أن العالم الإسلامي يزخر بالإمكانيات البشرية والمادية ولوقدر لهذه الإمكانيات أن تنظم وتستغل الإستغلال الأمثل لأصبح هذا العالم الإسلامي ممسكا بزمام الأمور في العالم كله .

ملحق بالبحث

نبذة عن حياة مالك بن نبي

حياته : ولد " مالك بن نبي " في أول جانفي 1905(05 ذي القعدة 1323ه) بمدينة قسنطينة وهو إبن الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي (1) إنتقل إلى تبسة حيث تعلم القرآن ودخل المدرسة نال بها شهادة الدراسة الإبتدائية (2) . إنتقل بعدها إلى التعليم الثانوي قسنطينة , فكان يحضر دروس الفقه للشيخ إبن العابد , ودروس النحو العربي والصرف على الساعة السابعة من كل صباح – قبل الإلتحاق بالثانوية في الجامع الكبير . وبدأ يميل إلى المطالعة منذ الصغر , تذوق العبقرية الشعرية الجاهلية وشعر العصر الأموي والعباسي , وبصورة عامة إطلع على الشعر العربي من إمرىء القيس حتى شعراء المهجر . وفي سنة 1925 أنهى دراسته الثانوية وألتحق في صيف نفس السنة بفرنسا بحثا عن العمل , ولكنه سرعان ما رجع وفضل العمل في بلاده , حيث عين في " أفلو " في شهر مارس سنة 1927 (3) وعلى الرغم من أن مرتب المحاكم بالنسبة للأهالي كان ضئيلا إلا أن مالكا كان هدفه مناقشة الفرنسيين في هذا المنصب وكان بهذه المناسبة سببا في دخول عدد " للشهاب إلى أقلو(4). وبدأت خبرته السياسية والإجتماعية تتكون حيث أنتقل في السنة الموالية إلى شلغوم العيد و بجفوة المعاملة من طرف المستعمرين فضل الإستقالة . (5) كما فشل بسبب الأزمة الإقتصادية العالمية سنة 1929 في الإ شتغال في مطحنة (6)

---

(1) عمار طالبي , مالك بن نبي والحضارة , مجلة الثقافة 18 السنة 1973 ص10 .

(2) مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن, الطفل : مروان القنواتي ط 1 دار الفكر بيروت 1969 ص26 .

(3) مالك بن نبي : الطفل ص 305 .

(4) المصدر السابق نفسه : ص 303 .

(5) المصدر السابق نفسه : 344 .

(6) المصدر السابق نفسه : ص 346 .

وبدأ يفكر في كيفية العمل في وقت كانت الإدارة الفرنسية تحضر لعيد مضي مئة سنة على إحتلال الجزائر وكان لهذا الحدث الأثر الكبير في نفسه . وفي سنة 1930 إنتقل إلى فرنسا بغرض الدراسة وأجرى إمتحان الدخول " لمعهد الدراسات الشرقية , زار على أثره متحفا للفنون والصناعات , كان ذلك سببا في تفكير لأول مرة في مشكلة الحضارة (1) .

إنضم إلى " الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين " وأكتمل فيها تكوينه بإطلاعه على الجانب الروحي للحضارة الغربية , كما أن معرفته لصديق أربي كان يأخذه معه إلى

بيته أطلعته عن الحضارة والحياة الأربية من داخل في إطار عائلي (2) . ولما سجل نفسه في المعهد الاسلكي , تعرف على الحضارة الغربية من جانبها النظري . ولم يعد يفكر في مركز اجتماعي بل أصبح يشعر وكان المجتمع الجزائري والإسلامي ككل " ليحقق له الخلاص بفضل دراسته" .

وفي الحي اللاتيني كان يدعوا إلى الإصلاح والوهابية والوحدة المغربية(3)

وفي سنة 1931 تزوج شابة أوروبية أخذت على عاتقها حياته المادية في البيت

و أنتظمت بذلك حياته في البيت بعد أن هداها الله فسمت نفسها خديجة , ومع زيارة صديقه " حمودة بن الساعي كانت تدور مناقشات علمية , سياسية , دينية , إجتماعية, فأهتم بالفلسفة وعلم الإجتماع والتاريخ أكثر من إهتمامه بمواد مدرسة اللاسلكي . ونظرا لتكوينه العلمي واستعداده للدراسات النظرية , فقد ألتحق بمدرسة الكهرباء والميكانيكا التي ظل بها إلى سنة 1935 .

---

(1) مالك بن نبي : مشكلة الحضارة ومذكرات شاهد القرن " الطالب " ط1 دار الفكر بيروت 1970 ص11,12

(2)المصدر السابق نفسه : ص 24 .

(3) المصدر السابق نفسه : ص 43.

عاد إلى الجزائر سنة 1935 وما لبث أن قرر العودة إلى فرنسا . زار " بن نبي " عدة بلدان كالصين , أندونيسيا , وأمريكا , والإتحاد السوفياتي, وألمانيا(1)
كما أدى فريضة الحج عدة مرات , وفي عام 1956 أقام بالقاهرة كلاجىء سياسي وهناك كان نشاطه يتمثل في عقد مجالس أسبوعية مع طلبة العالم الإسلامي يوقض فيها العقول (2)
لما حصلت الجزائر على إستقلالها عاد إليها فعين مديرا للتعليم العالي وعلى غرار نشاطه في القاهرة أصبح يعقد مجالس أسبوعية مع الطلبة , وفي الأحياء الجامعية .
وفي عام 1967 أستقال من منصبه وتفرغ للبحث والنشاط الفكري وتنظيم الندوات .
أنتقل " مالك بن نبي " إلى جوار ربه يوم الأربعاء 4 شوال 1393ه الموافق ل31 أكتوبر 1973 بمنزله (3) .

---

(1) عمار طالبي : الثقافة ص 11 .

(2) المصدر السابق نفسه ص 11 .

(3) المصدر السابق نفسه ص11 .

مؤلفاته:

- شروط النهضة .
- ميلاد مجتمع.
- مشكلة الثقافة .
- وجهة العالم الإسلامي.
- الظاهرة القرآنية .
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي .
- حديث في البناء الجديد.
- في مهب المعركة .
- النجدة للجزائر .
- بين الرشاد و التيه.
- فكرة الإفريقية الآسيوية .
- فكرة كمنويلث إسلامي .
- المسلم في عالم الاقتصاد .
- تأملات .
- آفاق جزائرية.
- دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.
- مذكرات شاهد للقرن : الطفل .
- مذكرات شاهد للقرن : الطالب
- Le Mondialisme
- Pour changer L'ALGERIE

فهرس المصطلحات:

التطور L'evolution

الجدلية الهيغلية Dialectique Hégélien البدائي

Primitif النهضة

Renaissanceالانثروبولوجيا Enthropologie

- المادية Materialisme

معامل Coéficient

الفعالية L'eficacitéالتحدي Le

defitالمجتمع التاريخي Societe

historiqueالوعد و الوعيد

الوجودية L'existancialismeحوار

الحضارات Dialogue des civilizationsالإفراط و التفريط

القضية Théseنقيض

القضية Antithéseتركيب

القضيتين Synthéseالجدلية

التاريخية Dialectique historique

عالم الأشخاص Le monde des personnesعالم الأفكار

Le monde des idéesعالم الأشياء

Le monde des chosesحضارة Civilisation

ثقافة Culture

شبكة العلاقات الاجتماعية

رأس مال Le العقلانيةCapital

Societe مجتمع قبل التحضرRationalisme

Societe civiliser مجتمع التحضرpres- civiliser

Societe après civiliser مجتمع ما بعد التحضر

الجاهلية

الإسلام

الأفكار القاتلة

الأفكار المخذولة

الإقناع

الاقتناع

الحرفية في الثقافة

التعالم

البوليتيكا=الحرفية في السياسة

الإمكان المالي

الإمكان الاجتماعي

الإيديولوجية

الحاجة

المنفعة

منتوج حضاري Produit de civilisation

الافروآسيوية Le sol الترابAfro-Asiatique

Le colonialisme الاستعمار

القابلية للاستعمار

مرحلة الغريزة

مرحلة الروح

مرحلة العقل

الاجتهاد

الكومنويلث الإسلامي Comnwealth islamique

الصراع من اجل البقاء

فهرس الأعلام :

فهرس المصادر والمراجع باللغة العربية :

1-المصادر باللغة العربية:

- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الإجتماعية ت/ عبد الصبور شاهين ط/4 دار الفكر دمشق 1974
- مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ت/عبد الصبور شاهين ط/4 دار الفكر دمشق 1981 .
- مالك بن نبي : شروط النهضة ت/ عبد الصبور شاهين ط/4 دار الفكر 1981
- مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه ت/ عبد الصبور شاهين ط/1 دار الفكر دمشق 1978
- مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ت/ محمد عبد العظيم علي ط/4 دار الفكر دمشق1981 .
- مالك بن نبي : المسلم في عالم الإقتصاد ت/ عبد الصبور شاهين ط/4 دار الفكر دمشق 1981 .
- مالك بن نبي : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ت / بقلم المؤلف ط/4 دار الفكر دمشق 1981 .
- مالك بن نبي : تأملات ت/ عمر كامل مسقاوي ط/4 دار الفكر دمشق 1979
- مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ت/ عبد الصبور شاهين ط/4 دار الفكر دمشق 1981 .

- مالك بن نبي : آفاق جزائرية ت/ الطيب الشريف ط/4 مكتبة النهضة الجزائرية (بدون التاريخ)
- مالك بن نبي : فكرة الأفريقية الآسيوية ت/ عمر كامل مسقاوي ط/4 دار الفكر دمشق 1981 .

المراجع باللغة العربية :

- الأفغاني و عبده : العروة الوثقى دار الكتاب العربي لبنان 1970
- أنور الجندي : سموم الاستشراق و المستشرقين دار الشهاب باتنة الجزائر 1987
- د/ الأخضر شريط : مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي , رسالة لنيل شهادة الماجستير السنة الجامعية 1988-1989
- إدريس خضير : فلسفة الاقتصاد في الاسلام – ديوان المطبوعات الجامعية الجزائري 1982
- الطاهر قسام : المفتاح في الجغرافيا للبكالوريا للطباعة و النشر و التوزيع برج الكيفان ط/ 1999
- د/ إسماعيل محمد هاشم : مبادئ الاقتصاد التحليلي دار النهضة العربية بيروت 1978
- ج. ب. سارتر : دفاع عن المثقفين ت / جورج طرابيشي دار الاداب بيروت ط/1- 1973
- حسن حنفي : التراث و التجديد دار التنوير للطباعة و النشر بيروت ط/1- 1981
- زينب الغزالي : مسيرة و حديث من الذكريات من خلال كتاباتها دار الحديقة للنشر 1989
- د/ عبد الله شريط : معركة المفاهيم الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ط /2 – 1981
- د/عبداللطيف عبادة : صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , دار الشهاب , باتنة الجزائر 1984
- غاستون بوتول : تاريخ السوسيولوجيا , سلسلة زدني علما ت/ د. ممدوح ط /1. 1977
- فريدريك انجلز : لوفديغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية المؤلفات الكاملة جزء 21 برلين 1962 ألمانيا .

- لويس معلوف اليسوعي : المنجد في اللغة و الآداب المطبعة الكاثوليكية ط/1 بيروت 1927 .
- محمد الجوهري و آخرون : ميادين علم الاجتماع القاهرة ط / 3 - 1974
- محمد عمارة : الاسلام و ضرورة التغيير وزارة الإعلام مطبعة حكومة الكويت 1977
- محمد الغزالي : حصاد الغرور دار الشهاب باتنة الجزائر 1986
- محمد الغزالي : الحق المر دار الشهاب باتنة 1987
- محمد الغزالي : فقه السيرة مكتبة رحاب , ساحة بور سعيد الجزائر 1987
- محمد الغزالي : ظلام من الغرب دار الشهاب للطباعة و النشر 1986
- محمد الغزالي : جهاد الدعوة بين عجز الداخل و كيد الخارج دار الكتب الجزائرية 1987
- محمد الغزالي : قذائف الحق دار الشهاب باتنة الجزائر 1986
- نبيل محمد توفيق السمالوطي: الإسلام و قضايا علم النفس الحديث ديوان المطبوعات الجامعية 1986
- د/ يوسف القرضاوي : الحل الإسلامي فريضة و ضرورة الصحوة الإسلامية الدوحة 1971
- د/ يوسف القرضاوي : الحلول المستوردة و كيف جنت على أمتنا 1971
- المنجد في اللغة و الإعلام دار المشرق بيروت ط /39 - 1980
- المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية و متعلميها تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب بتكليف من المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم دار النشر لاروس 1939 .
- الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة العلماء و الاكاديميين السوفياتيين دار الطليعة للطباعة و النشر بيروت ط/2- 1980 .

الدوريات

- أحمد العيساوي : مجلة العربي العدد 500 جويلية 2000 .
- الثقافة : مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر العدد 44 -1978 .
- العلم والإيمان : مجلة علمية شهرية – تونس – 1980 .
- حمدي عبد الرحمان حسن : العولمة وآثارها السياسية في النظام الإقليمي المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية العدد 258 .
- الأصالة : مجلة ثقافية شهرية – العدد 85-86 سبتمبر- أكتوبر 1980 .
- مجلة دراسات فلسفية: مجلة سداسية متخصصة يصدرها معهد الفلسفة بجامعة الجزائر – العدد/1-السداسي/1 – 1996 .

فهرس المصادر باللغة الفرنسية :

- Malek ben nabi   Mondialisme(Articles de presse) Reunis choisis annotes et prefaces par Abderahmane ben amara dar elhadra Alger 2004 .

-Malek ben nabi   Pour changer L'Algerie (Articles de presse) Societe d'edition et communication 1989

فهرس المراجع باللغة الفرنسية :

- R. Garaudy   Promesse de L'islam edition du seuil paris 1983

-A.Toyombee   L'histoire   edition seuil paris1980

- A.toyombee Guerre et civilisationedition Gallimard paris 1953

-Karl Marx   Critique de l'etat Hégelien U.G.E paris 1976

فهرس الآيات القرآنية :

فهرس الأحاديث النبوية:

فهرس